حروف المعاني

وأثرها في بلاغة المعنى القرآني

إعداد

أ.د السّيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد

وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣م

حروف المعاني وأثرها في بلاغة المعنى القرآني

السيد محمد سلام
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر فرع المنوفية، مصر.
البريد الإلكتروني:
elsayedSalam.Lan@Azhar.edu.eg

ملخص البحث:

هذا البحث يهدف إلىٰ: بيان معنىٰ الحرف، وأقسامه، وعمله، وعدد حروف المعاني والفرق بينها، وبين وحروف المباني، ثم تخير بعض حروف المعاني ليبين أثرها في بلاغة المعنىٰ حين تذكر، وحين تحذف، وتجلىٰ منه أن حرف المعنىٰ وهو مذكور في سياق الكلام له دلالة يستقيم بها المعنىٰ ويعلو، وعندما يكون محذوفا يكون معناه باقيا، وله حينئذ دلالة لا تكون عند ذكره، فالحذف في موطنه بليغ، والذكر في موطنه بليغ، ولكل سياق ما يناسبه، ومن ثم تم تقسيمه إلىٰ عناصر، جاء في مقدمتها: حروف التهجي التي جاءت استهلالا لتسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، وهي نصف حروف المعجم، ولا ريب أنها حروف معان؛ لأن كل حرف منها ينطق مستقلا باسمه، فيقال: ألف، لام، ميم. ولا تنطق (ألم) كما في قوله تعالىٰ" ألم نشرح لك صدرك" ويحققه ما جاء في الحديث الشريف" لا أقول: ألف. لام. ميم. حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف. والعنصر الثاني في البحث: حرف "يا" مع كلمة" ربنا" وكلمة" رب" في دعاء بعض الأنبياء، فقد تبين أن حذفه أكثر من ذكره، وهو في سياق المعنىٰ يؤدي ما لا يؤديه وهو مذكور، والعنصر الثالث في بعض الحروف التي ذكرت في سياق وحذفت في مثيله، في سياق واحد من سورة واحدة، أو في سياقين من سورتين مختلفتين، بينت الدراسة بلاغة

الحذف، وبلاغة الذكر، كل في مقامه، وسياقه. وانتهج البحث في ذلك المنهج التحليلي التعليلي من خلال السياق والمقام، دون إغفال المقصود الأعظم للسورة؛ لتتجلىٰ بلاغة الحرف حين يحذف ويبقىٰ معناه، وحين يذكر ويؤدي غرضه في مقامه وسياقه.

الكلمات المفتاحية:

المعاني- حروف-بلاغة- أثر- المعنىٰ القرآني.

Letters of meanings and their impact on the eloquence of the Quranic meaning

Elsaied Mohamed Salam
Department Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Menoufia Branch, Egypt.
Email: elsayedSalam.Lan@Azhar.edu.eg

Abstract:

This research aims to: explain the meaning of the letter, its divisions, its function, the number of letters of meanings and the difference between them and the letters of buildings, then choose some letters of meanings to show their impact on the eloquence of meaning when they are mentioned, and when they are omitted. Speech has an indication by which the meaning is upright and elevated, and when it is omitted, its meaning remains, and at that time it has a connotation that does not exist when it is mentioned. : The spelling letters that came at the beginning of twenty-nine surahs of the Holy Qur'an, and they are half of the letters of the dictionary, and there is no doubt that they are Ma'an letters; Because each letter is pronounced independently of its name, so it is said: Alif, Lam, Meem. And do not pronounce (pain) as in the Almighty's saying, "Did we not explain your chest to you?" And what came in the honorable hadith confirms it: "I do not say: alif. The second element in the research: the letter "ya" with the word "our Lord" and the word "Lord" in the supplication of some of the prophets. In a context and omitted in a similar context, in one context of one surah, or in two contexts of two different suras, the study showed the eloquence of omission, and the eloquence of remembrance, each in its place and context. The research followed the analytical and explanatory approach through the context and the position, without neglecting the greatest purpose of the surah. So that

the eloquence of the letter becomes clear when it is deleted and its meaning remains, and when it is mentioned and fulfills its purpose in its place and context.

Keywords:

Meanings - Letters - Rhetoric - Impact - Quranic meaning

مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله ومن تبعه. وبعد:

فهذا بحث في حروف المعاني يبين قيمتها، وعددها، والفرق بينها وبين حروف المباني، وكل حرف من حروف المعاني له دلالة، والمعاني مخبوءة تحت ألفاظها، كامنة فيها، وقيمة اللفظ من قيمة المعنىٰ، وقوة المعنىٰ تصورها قوة اللفظ، ومن ثم أردت أن أبين قيمة بعض حروف المعاني في بيان النسق القرآني الذي أعجز الخلق قاطبة، كما قال الشيخ عبد القاهر:" أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها ومواقعها" ومن هذه المزايا التي ظهرت لهم في نظمه: ترابط كلماته، ونسق عباراته، وهذا الترابط له حروف، وكل حرف له دلالة في الكلام، ويحمل معنىٰ عند ذكره، وعند حذفه، فلكل مقام مقال، ولذلك أردت أن أبين قدرا من مكانة هذه الحروف عند ذكرها، وعند حذفها، أو ذكرها في مكان، وحذفها من نظيره، وأثرها في كل سياق، مذكورة، أو محذوفة، فكان هذا الموضوع الذي أبرز أسبابه: بيان منزلة كل حرف من حروف هذه اللغة، ولاسيما في كلام الله الذي ليس كمثله كلام، كما أن الله ليس كمثله شيء، ولا أعلم بحثا بهذا العنوان، اسما، أو مضمونا، وإن كتب في حروف المعاني مؤلفات، إلا أن لها دراسة أخرىٰ تختلف عن هذه الدراسة التي سارت علىٰ المنهج التحليلي التعليلي، دون أن تغفل الترجيح، وأن يكون لها رأي في كل بيان، وقامت علىٰ عدة عناصر، استهلت بحروف التهجي التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم، وأدخلتها ضمن حروف المعاني؛ لأنها تنطق بأسمائها مقطعة، ولا تنطق كلمة مكتملة البناء، ووراءها أسرار، وللعلماء حولها وقفات، أخذت منها، وناقشت وعللت، ثم ذكرت من حروف المعاني حرف

النداء(يا) مع لفظ(ربنا) ولفظ(رب) وبينت دلالته عند حذفه، وعند ذكره، واكتفيت بنماذج من ذلك، ثم بينت مكانة حرف(الواو) حين يذكر في موطن، ويحذف من نظيره، في سياق واحد، وفي سياقين متباعدين من سورتين مختلفتين، من خلال بعض الشواهد، وقامت الدراسة علىٰ التحليل والتعليل وعلاقة الشاهد بمقصود السورة الأعظم.

والله من وراء القصد

وهو نعم المولى ونعم النصير

أ.د: السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد وعميد الكلية

مدخل

الحرف: معناه وأقسامه، وعدد حروف المعاني

أولا: معنى الحرف:

يقول ابن فارس: "الحاء الراء والفاء ثلاثة أصول: حدُّ الشيء، والعُدول، وتقدير الشَّيء" والذي يعنينا هو الأصل الأول: حد الشيء؛ لأن الأصل الثاني معناه: الانحراف عن الشيء، والأصل الثالث معناه: المِحراف، حديدة يقدَّر بها الجِراحات عند العِلاج.[1] والأصلان الأخيران لا يفيدان شيئا في المعني الذي نحن بصدده، أما الأصل الأول فهو المقصود؛ لأن المراد هنا هو تحديد المعنىٰ الذي يتطلبه السياق، والحرف له أثر جلي فيه، لأنه حد من حدود الكلام، والكلام ينقسم ثلاثة أقسام: اسم، وفعل، وحرف، وكل له دلالة في سياقه، وأثر في تحديد المعنىٰ، إن كان الحرف لا يقوم بنفسه، ومن ثم كان الحرف أحد القراءات من قولهم: فلان يقرأ بحرف، وفي الحديث الشريف" إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَىٰ سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ"[2]

ومن ثم قيل: "الحرف كلمة تدل علىٰ معنىٰ، في غيرها فقط" "، وقوله تدل علىٰ معنىٰ في غيرها فصل يخرج به الفعل، وأكثر الأسماء، لأن الفعل لا يدل علىٰ معنىٰ في غيره. وكذلك أكثر الأسماء.

---

[1] – مقاييس اللغة(حرف)

[2] – صحيح البخاري كتاب بدء الوحي ج٩/ ١٩٥، وينظر كتاب: اتفاق المباني وافتراق المعاني لسليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقيّ الدين، الدقيقي المصري (المتوفىٰ: ٦١٣هـ) تحقيق: يحيىٰ عبد الرؤوف جبر نشر: دار عمار – الأردن – الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.ص١٤٦

وقوله "فقط" فصل ثان، يخرج به من الأسماء، ما يدل علىٰ معنىٰ في غيره، ومعنىٰ في نفسه. فإن الأسماء قسمان: قسم يدل علىٰ معنىٰ في نفسه، ولا يدل علىٰ معنىٰ في غيره، وهو الأكثر. وقسم يدل علىٰ معنيين: معنىٰ في نفسه، ومعنىٰ في غيره: كأسماء الاستفهام، والشرط. فإن كل واحد منها يدل-بسبب تضمنه معنىٰ الحرف- علىٰ معنىٰ في غيره، مع دلالته علىٰ المعنىٰ الذي وضع له، فإذا قلت مثلاً: من يقم أقم معه، فقد دلت (من) علىٰ شخص عاقل بالوضع، ودلت مع ذلك علىٰ ارتباط جملة الجزاء بجملة الشرط، لتضمنها معنىٰ إن الشرطية، فلذلك زيد في الحد فقط، ليخرج به هذا القسم، " وقولنا في الحرف يدل علىٰ معنىٰ في غيره، نعني به أن تصور معناه متوقف علىٰ خارج عنه: ألا ترىٰ أنك إذا قلت: ما معنىٰ (من) فقيل لك: التبعيض، وخليت وهذا، لم تفهم معنىٰ من إلا بعد تقدم معرفتك بالجزء والكل، لأن التبعيض أخذ جزء من كل"[1].

ومن ثم كان الحرف في اللغة هو طرف الشيء أي حده؛ لأنه كما قال المرادي: طرف في المعنىٰ؛ لأنه لا يكون عمدة، وإن كان متوسطا .. فإن قيل: فإن الحرف الواحد قد يرد لمعان كثيرة، فالجواب أن الأصل في الحرف أن يوضع لمعنىٰ واحد، وقد يتوسع فيه، فيستعمل في غيره، قاله بعضهم، وأجاب غيره بأن الاسم قد يدل في حالة واحدة، علىٰ معنيين، مثل أن يكون فاعلاً ومفعولاً، في وقت واحد، كقولك: رأيت ضارب زيد. فضارب زيد في هذه الحالة فاعل ومفعول، والفعل أيضًا يدل علىٰ معنيين: الحدث، والزمان. والحرف إنما يدل في حالة واحدة، علىٰ معنىٰ واحد.[2]

(١) - كتاب الجنىٰ الداني في حروف المعاني الحسن بن قاسم المرادي ت: فخر الدين قباوة. محمد نديم فاضل . دار الآفاق الجديدة بيروت ص٢٠: ٢٢.

(٢) -ينظر السابق ص ٢٣

ثانيا: أقسام الحرف:

وأما أقسام الحرف فثلاثة: مختص بالاسم، ومختص بالفعل، ومشترك بين الاسم والفعل.

قد علم مما سبق أن الحرف قسمان: عامل، وغير عامل، فالعامل هو ما أثر فيما دخل عليه رفعًا، أو نصبًا، أو جراً، أو جزمًا، وغير العامل بخلافه، ويسمىٰ المهمل.

ثم إن العامل قسمان:

قسم يعمل عملاً واحد ، وقسم يعمل عملين.

فالأول إما ناصب فقط، كنواصب الفعل، وإلا، في الاستثناء، وواو (مع) عند من يراهما عاملين، وإما جار فقط، وهو حروف الجر، وإما جازم فقط، وهو حروف الجزم.

وليس في الكلام حرف يعمل الرفع فقط، خلافًا للفراء في قوله: إن "لولا" ترفع الاسم الذي يليها، في نحو: لولا زيد لأكرمتك.[1]

ثالثا: عدد حروف المعاني:

ذكر بعض النحويين أن جملة حروف المعاني ثلاثة وسبعون حرفًا. وزاد غيره علىٰ ذلك حروفًا أخر مختلفًا في حرفية أكثرها. وذكر بعضهم نيفًا وتسعين حرفًا. وقد وقفت علىٰ كلمات أخر مختلف في حرفيتها، ترتقي بها عدة الحروف علىٰ المائة، وهي منحصرة في خمسة أقسام: أحادي، وثنائي، وثلاثي، ورباعي، وخماسي. فلذلك جعلت لها خمسة أبواب.[2]

(١) – كتاب الجنىٰ الداني في حروف المعاني ص٢٥: ٢٨.

(٢) – ينظر السابق ص٢٨

والأحادي ما تكون من حرف واحد كالهمزة، والثنائي ما تكون من حرفين نحو: إن، ويا، والثلاثي ما تكون من ثلاثة أحرف نحو: إذا، وألا.. والرباعي ما تكون من أربعة أحرف نحو: إلا، وكأن، والخماسي ما تألف من خمسة أحرف نحو: لكن. وللاستزادة من ذلك يراجع كتاب الجنىٰ الداني في حروف المعاني للمرادي.

رابعا: الفرق بين حروف المعاني وحروف المباني:

حروف المعاني هي التي تؤدي معنى نحو: الاستفهام، والنداء، والعطف، والشرط، ونحو ذلك حسب سياق الكلام، وحروف المباني هي التي تبنىٰ منها الكلمات كما هو معروف، وهذا البحث قائم علىٰ حروف المعاني، والحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن الكريم تدخل في هذا الباب؛ لأنها تنطق مقطعة، ولا يصلح نطقها كلمة واحدة كما تنطق الكلمات المبنية، وهذا مما يستدعي أن أصدر البحث بها.

الحروف المقطعة ودلالتها في السياق القرآني:

لا ريب أن التعبير بهذه الحروف وراءه سر أقوىٰ من أن يتحدث فيه القوم، بدليل أنهم لم ينبسوا فيه ببنت شفة، مع أنهم قالوا عن القرآن: سحر، وشعر، وغير ذلك، ولكنهم عند هذه الأحرف لا تكاد تسمع لأحد منهم ركزا، فقد خرست ألسنتهم مع شدة حرصهم علىٰ معارضته، وهذا أول مفتاح للمعارضة؛ لأن هذه حروف من جنس ما بني عليه الكلام، وتُنطق هذه الحروف باسمها لا بمسماها، وتُنطق مقطعة، وكل هذا مما يلفت النظر، ويستدعي التفكير، فـ "الم" تقرأ حرفًا حرفًا، بخلاف قوله -تعالىٰ-: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فالنطق هنا يكون بمسمىٰ الحرف، ولكل منهما معنىٰ وجمال ودلالة في سياقه ... وهذه الحروف دون سواها مبنية علىٰ الوقف، يعني لا تصلح قراءتها إلا بالوقوف عليها، بخلاف قراءة القرآن

غيرها، فالوصل قائم فيه، فآخر كل كلمة مضبوط بالشكل علىٰ موقفها مما بعدها، وموقف ما بعدها منها ... وهكذا.

ولكن هذه الحروف لا تصلح إلا بالوقف عليها، وهذا الوقف يهز أوتار الصوت، فيعطي نبرة تشغل السمع بالبحث عن دلالتها، **ولكن يجب البداية بذكر أقسام هذه الحروف من حيث أوصافها وأصنافها:**

يقول الزمخشري: "واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله -عز سلطانه- في الفواتح من هذه الأسماء، وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والقاف، والنون، في تسع وعشرين سورة علىٰ عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة علىٰ أنصاف أجناس الحروف، بيان ذلك: أن فيها من المهموسة نصفها (الصاد والكاف والهاء والسين والحاء)، ومن المجهورة نصفها (الألف واللام والميم والراء والعين الطاء والقاف والياء والنون)، ومن الشديدة نصفها (الألف والكاف والطاء والقاف)، ومن الرخوة نصفها (اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون) ومن المطبقة نصفها (الصاد والطاء) ومن المنفتحة نصفها (الألف والياء والنون)، ومن المستعلية نصفها (القاف والصاد والطاء)، ومن المنخفضة نصفها (الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والشين والحاء والنون)، ومن حروف القلقلة نصفها (القاف والطاء).

ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها رأيت الحروف التي ألغىٰ الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها، فسبحان الذي دقّت في كل شيء

حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته.(١)"

استدعىٰ المقام أن أنقل النص كله؛ ليكون مرآة للناظرين ومفتاحًا للباحثين عن تصنيف هذه الحروف، والراغبين في معرفة الحكمة منها، وأنها من كل صنف نصفه، وتلك عدالة تدع الحليم -إن وجد-من المعارضين حيرانًا؛ لأنها جاءت من تراكيب كلامهم، ومن أصناف بيانهم الذي برعوا فيه، وصاروا بسببه أهل لسان، وحجة وبيان، ومن ثم نزل القرآن بلسانهم لقوته، ومع ذلك تحداهم أن يأتوا بشيء من مثله، ولو كان علىٰ سبيل الافتراء كما قال -تعالىٰ-: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤.]

فقد ألزمهم -بذلك-الحجة، ولكن دحضت حجتهم بقدر ما قويت حجة المبعوث إليهم وإلىٰ الناس كافة.

وثمة تصنيف آخر لهذه الحروف ذكره الزركشي، يبين عدد ذكر كل حرف منها، والنظم الذي يجمعها، والنص النثري كذلك.

يقول الزركشي: "واعلم أن الأسماء المتهجاة في أول السور ثمانية وسبعون حرفًا، فالكاف والنون كل واحد في مكان واحد، والعين والياء والهاء والقاف كل في مكانين، والصاد في ثلاثة، والطاء في أربعة، والسين في خمسة، والراء في ستة، والحاء

(١) الكشاف ١/ ١٠٠: ١٠٣.

في سبعة، والألف واللام في ثلاثة عشر، والميم في سبعة عشر، وقد جمع بعضهم ذلك في بيتين وهما:

كـن واحـد عيهـق اثنـان ثلاثـة صـا د والطاء أربعة والسين خمس علا
والـراء سـت وسـبع الحـاء آل ودج وميمهـا سـبع عشـر تـمّ واكـتملا

هي في القرآن في تسعة وعشرين سورة، وجملتها من غير تكرار أربعة عشر حرفًا يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر.[1]"

وإذا أردنا أن ندرس نماذج منها، فننظر في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِ﴾، وأول آل عمران: ﴿الٓمٓ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾ وأول الأعراف: ﴿الٓمٓصٓ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وأول يونس: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وأول هود: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، وأول يوسف: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾، وأول الرعد: ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ...﴾، وأول إبراهيم: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ...﴾ الآية، وأول الحجر: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

نجد إلىٰ هذا الحد أنها في النصف الأول من القرآن الكريم كلها تتحدث عن الكتاب لنفي الريب، أو لإنزاله بالحق، أو لطمأنته -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ ولوصفه بالحكم، وإحكام آياته ثم تفصيلها، ولوصفه بالمبين، كما في يوسف، ولبيان علو آياته كما في أول الرعد: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ

(١) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، ج١/ ١٦٧.

ٱلْكِتَٰبِ ﴾، ووصفه بالحق، أو لبيان منهجه -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- كما في إبراهيم، أو لرفعة الكتاب، وكونه قرآنًا مبينًا مفصلًا جامعًا بينًا مبينًا لكل شيء كما في أول الحجر.

لذلك قيل: إن هذه الحروف تذكر في السور التي تتحدث عن الكتاب، أو القرآن في بدايتها، وهذا دليل علىٰ ذلك.

وهكذا في النصف الثاني من القرآن لو تأملنا، نجد أيضًا الكتاب أو القرآن أو الذكر، فالذكر كما في أول سورة مريم، والقرآن كما في أول طه، وأول يس، وأول ص، وأول ق، والكتاب كما في أول الشعراء: ﴿ طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾، والجمع بين القرآن والكتاب كما في أول النمل: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ وكذا أول القصص ذكر الكتاب موصوفًا: ﴿ طسٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾، والوصف بالحكيم في أول لقمان: ﴿الٓمٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾، وأول السجدة: ﴿ الٓمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وكذا أول غافر: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، وأول فصلت: ﴿ حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ... ﴾، وأول الزخرف: ﴿ حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾، وأول الدخان نفس النص، وأول الجاثية: ﴿ حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ... ﴾، وأول الأحقاف أيضًا: ﴿حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ... ﴾.

ولم يخرج عن ذكر الكتاب أو القرآن إلا خمس سور، هي: مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾، والعنكبوت: ﴿الٓمٓ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ

أَن يُتْرَكُوٓاْ ... ﴾، وأول الروم: ﴿ الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ... ﴾، وأول الشورىٰ: ﴿حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ... ﴾، وأول سورة ن: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

ولكل من هذه السور الخمس خصوصية تعادل السور التي استهلت بحروف التهجي، وذكر في أولها الكتاب أو القرآن ... فإذا نظرنا في أول سورة مريم ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ نجد ذكر الرحمة التي منبعها اتباع الكتاب بما فيه من آيات وابتلاءات وعبر وعظات، وقصة مريم فيها، وافتراء القوم عليها، وذكر عيسىٰ وحديثه في المهد، والإعجاز الذي تجلىٰ فيها منبعه (رحمة ربك) وهذا يتناسب مع مقصودها الأعظم، وهو كما قال البقاعي: "بيان اتصافه -سبحانه- بشمول الرحمة بإفاضة النعم علىٰ جميع خلقه، المستلزم للدلالة علىٰ اتصافه لجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة علىٰ إبداع المستغرب، المستلزم لتمام القدرة، الموجب للقدرة علىٰ البعث.[1]"...

عند التأمل في هذا المقصود الأعظم، نجد أن هذا مضمون ما جاء به الكتاب، وما حواه القرآن الكريم، ولكن افتتاح السورة هنا جاء مختلفًا عن بقية الفواتح ليتناسب مع حالة مريم التي نفخ الله فيها من روحه، ولا مثيل لحالتها في البشر، وكذلك موقف عيسىٰ ونطقه في المهد، ورفع الله له، وإنزال المائدة من السماء بدعائه ... ونحو ذلك من أمور فريدة لحالته وحالة أمه -عليهما السلام-.

ولما كان أقصىٰ ما رآه البشر خلاف فطرتهم أن تلد الأم دون أن يمسسها بشر، وأن يتكلم وليدها في المهد دفاعًا عنها .. كان أقصىٰ ما جاءت عليه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور خمسة أحرف (كهعيص)، وحرف الكاف في بدايتها

(١) نظم الدرر، ٤/ ٥١٤.

يدل علىٰ تكرار الأحداث، ففيها ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ... ﴾ [مريم: ٥١]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ... ﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦.]

وتدل الكاف مع ما بعدها علىٰ عظمة هذه الأحداث، فمريم أحداث قصتها عظيمة في السورة، وفي غيرها، كما في سورة آل عمران، وإبراهيم له مواقف جسام كطرحه في النار، ومواقفه مع قومه، وابتلائه بذبح والده، وإسماعيل كان صادق الوعد؛ حيث قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ومواقف موسىٰ مع فرعون، ومع الذي استغاثه من شيعته، وابنتي شعيب ... وهكذا، وإدريس له مواقف جسام تستدعي ذكره، فقد قيل: إنه "أول من اتخذ السلاح وقاتل الكفار، وأول من نظر في علم النجوم، والحساب، وخط بالقلم، وخاط الثياب، ولبس الجبة، وكان أغربهم قصة، وأعجبهم أمرًا، وأقدمهم زمنًا، ختم به هذه القصص تأييدًا لهذا النبي الكريم.(١)"

والهاء تدل علىٰ بلوغ الشيء حده، وكنهه، وإذا كانت الكاف فيها تكرار، فالهاء فيها تنبيه، وليس أدل علىٰ ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ أكثر من مرة في السورة، والتنبيه -بلا شك-يدل علىٰ عظمة الشيء المنبّه له.

والأمر بلغ حده، وكنهه مع سيدنا زكريا -عليه السلام-لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ... ﴾، ومع ذلك بشره ربنا بغلام لم يجعل له من قبل سميا، ولذلك نجد حرف (العين) لم يذكر في الحروف المقطعة التي استهلت

(١) نظم الدرر، ٤/ ٥٤١.

به بعض السور إلا هنا، وفي سورة الشورىٰ، كما أن الصاد لم تذكر إلا هنا، وفي الأعراف، وجاءت حرفًا مفردًا في سورة ص، والياء ذكرت هنا، وفي (يس)، والهاء هنا، وفي (طه)، ولكل حرف دلالة في سياقه ومقامه، فلو تأملنا مثلًا بين فاتحة الأعراف، وفاتحة مريم نجد أن: في فاتحة الأعراف زيادة لم تذكر في فواتح السور قبلها، وهو حرف (ص) وأن هذا الحرف جاء بعدها في فاتحة سورة مريم ضمن مجموعة، ثم جاء قائمًا بنفسه في فاتحة سورة تسمىٰ باسمه ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾، والجانب الصوتي هنا يدل علىٰ الأحداث هنا وهناك، فحرف الصاد الذي زاد هنا عند السور السابقة يتناسب مع أحداث كثيرة في السورة جاءت تسلية للنبي -صلىٰ الله عليه وسلم- وأول تسلية هنا في تثبيت الحق له حيث قال -سبحانه-: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ... ﴾.

والتثبيت الثاني في التهديد والتقريع المتوالي للمكذبين: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٦، ٧]، ثم يأتي تلطيف الموقف بالتذكير بالنعم: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ ... ﴾ [الأعراف: ١١] "أي صورنا ذرية آدم -عليه السلام-في ظهره ... أو إشارة إلىٰ أنه -تعالىٰ-أثبت في اللوح المحفوظ صورة كل شيء كائن محدث إلىٰ قيام الساعة.(١)"

وهذا تذكير مشوب بالوعيد لمنكري النعم، وتلك كلها مقدمة السورة، يترتب عليها قصة السجود لآدم، وموقف إبليس، وتنبيهات بني آدم ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ

(١) تفسير الفخر الرازي، ١٣/ ٣٣.

يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦] ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٥] ثم قصة أصحاب الأعراف.

وبعد التذكير بقدرة الخالق -سبحانه- تسرد السورة مواقف فريق من الأنبياء مع أقوامهم ... تسلية لرسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- وتهوينًا عليه، وذلك في قصة: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب، موسىٰ، وقصة الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها، تلك التي جعلها الله مثلًا للمكذبين، ثم تختم السورة ببيان شأن المهتدين الصالحين، والضالين المفسدين، وهذا الذي قامت عليه السورة يدل عليه دلالة تامة مقصودها الأعظم، وهو "إنذار من أعرض عما دعا إليه الكتاب في السورة الماضية من التوحيد، والاجتماع علىٰ الخير، والوفاء لما قام علىٰ وجوبه من الدليل في الأنعام، وتحذيره بقرار الدارين.(١)"

وكل هذا، وما بُني عليه سياقه، يدل دلالة قاطعة علىٰ الشدة، والقوة التي دلت عليها الحروف المقطعة التي استهلت بها السورة، فالألف حرف مجهور، وكذا اللام والميم وهي -أيضًا- منفتحة، ومنخفضة، بحيث تحقق غرضها خلال السياق، وحرف الصفير الرخو، وهو الصاد يأتي اسمًا لسورة قائمة بنفسها وتفتح بنفس الحرف المقطوع (ص) وهذا يدعو إلىٰ التساؤل الذي فتح فيه العلماء بابًا كبيرًا عن نوعها من جهة الاسمية، أو الحرفية، والإعراب والبناء، ثم مفادها من جهة المعنىٰ ككونها قَسَمًا أو تنبيهًا، أو مجرد اسم سورة، وبيان ذلك كما يأتي:

(١) نظم الدرر، ٣/ ٣.

أولًا: الحديث عن نوعها من جهة الاسمية أو الحرفية:

ذكر الفخر الرازي أن الألفاظ التي يُتهجىٰ بها أسماء، مسمياتها الحروف المبسوطة .. ولأنها يتصرف فيها بالإمالة، والتفخيم، والتعريف والتنكير، والجمع، والتصغير، والوصف، والإسناد، والإضافة، فكانت لا محالة أسماء ... وأن تسميتها حروفًا في الحديث الشريف: "من قرأ حرفًا من كتاب الله تعالىٰ فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول الم حرف، لكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف ..." تسمية مجازية؛ لكونه اسمًا للحرف، وإطلاق أحد المتلازمين علىٰ الآخر مجاز مشهور...

ثم بيّن أنها أسماء معربة، وإنما سُكنت سكون سائر الأسماء؛ حيث لا يمسها إعراب لفقد موجبه، والدليل علىٰ أن سكونها وقف لا بناء أنها لو بُنيت لحُذي بها حذو كيف، وأين، وهؤلاء، ولم يقل: صاد، قاف، نون، مجموع فيها بين الساكنين.

كما أنها تحتمل الرفع علىٰ الابتداء، والنصب، والجر لصحة القسم بها، وهذا علىٰ رأي من جعلها أسماء للسور، ومن لم يجعلها أسماء للسور لم يتصور أن يكون لها محل علىٰ حد قوله، كما لا محل للجمل المبتدأة، والمفردات المعدودة.(١)

هذه حالتها، من جهة الاسمية والحرفية والإعراب والبناء.

أما من جهة مقصدها فللناس فيها قولان:

أحدهما: أنها علم مستور، وسر محجوب، استأثر الله -تبارك وتعالىٰ-به، وقال أبو بكر الصديق: لله في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور، وقال علي: -رضي الله عنه-إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي، فهذا

(١) تفسير الفخر الرازي، ج٢/ ٢، ٣، ١٣ باختصار.

رأي من فوض علمها إلىٰ الله وجعله يجري مجرىٰ علم الغيوب، ومنه قول الشعبي: إنها من المتشابه، نؤمن بظاهرها ونكل العلم فيها إلىٰ الله عز وجل.(١)

يقول الفخر الرازي: وقد أنكر المتكلمون هذا القول، وقالوا: لا يجوز أن يرد في كتاب الله -تعالىٰ-ما لا يكون مفهومًا للخلق؛ لأن الله -تعالىٰ-أمر بتدبره، والاستنباط منه، وذلك لا يكون إلا مع الإحاطة بمعناه، ولأنه كما جاز التعبد بما لا يعقل معناه في الأفعال فلم لا يجوز في الأقوال بأن يأمرنا الله تارة بأن نتكلم بما نقف علىٰ معناه، وتارة بما لا نقف علىٰ معناه، ويكون القصد منه ظهور الانقياد والتسليم(٢)

وأرجح أن لكل منها في سورته دلالة يجليها السياق كما سبق في دراسة أول سورة الأعراف، وأول سورة ص، وسأقف بعد بيان هذه الأقوال علىٰ دلالة بعضها وجماله من خلال السياق.

أما القول الثاني، فرأىٰ أصحابه أنها معلومة، وذكروا فيها ما يزيد علىٰ عشرين وجهًا، بعضها -من وجهة نظري-يغني عن بعض من هذه الوجوه:

١- أنها أسماء للسور، وهو قول أكثر المتكلمين، واختيار الخليل وسيبويه.

٢- أنها أسماء لله -تعالىٰ-روي عن علي -عليه السلام-أنه كان يقول: يا كهيعص، يا حم عسق.

٣- أنها أبعاض أسماء الله تعالىٰ، قال سعيد بن جبير: قول (الر، حم، ن) مجموعها اسم الرحمن، لكننا لا نقدر علىٰ كيفية تركيبها في البواقي.

٤- أنها أسماء للقرآن، وهو قول الكلبي والسدي وقتادة.

---

(١) ينظر: البرهان للزركشي، ج١/ ١٧٣.

(٢) ينظر: تفسير الرازي، ٢/ ٤، ٥، والبرهان للزركشي، ١/ ١٧٣.

٥- أن كل واحد منها دال علىٰ اسم من أسماء الله -تعالىٰ-، وصفة من صفاته، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-في (الم) الألف إشارة إلىٰ أنه -تعالىٰ-أحد، أول، آخر، أزلي، أبدي، واللام إشارة إلىٰ أنه: لطيف، والميم إشارة إلىٰ أنه ملك، مجيد، منان، وقال في (كهعيص) إنه ثناء من الله -تعالىٰ-علىٰ نفسه، والكاف يدل علىٰ كونه كافيًا، والهاء يدل علىٰ كونه هاديًا، والعين يدل علىٰ العالم، والصاد يدل علىٰ الصادق ...

٦- بعضها يدل علىٰ أسماء الذات، وبعضها علىٰ أسماء الصفات، قال ابن عباس في (الم) أنا الله أعلم، وفي (المص) أنا الله أفصل، وفي (الر) أنا الله أرىٰ.

٧- كل واحد منها يدل علىٰ صفات الأفعال، فالألف آلاؤه، واللام لطفه، والميم مجيده.

٨- بعضها يدل علىٰ أسماء الله -تعالىٰ-وبعضها يدل علىٰ أسماء غير الله، فالألف من الله، واللام من جبريل، والميم من محمد، أي أنزل الله الكتاب علىٰ لسان جبريل إلىٰ محمد -صلىٰ الله عليه وسلم-.

٩- كل واحد من هذه الحروف يدل علىٰ فعل من الأفعال.

١٠- أن الله -تعالىٰ-ذكرها احتجاجًا علىٰ الكفار، وذلك أن الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عنه، وأنزلت هذه الحروف علىٰ أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف؛ أي أنها تنبيهات علىٰ عجزهم، وأن القرآن ليس إلا من عند الله.

١١- كأن الحق قال: اسمعوها مقطعة حتىٰ إذا وردت عليكم مؤلفة كنتم قد عرفتموها قبل ذلك.

١٢- قيل: يراد بها حساب الجمل، ورده كثير من العلماء؛ لأنه أشبه بالسحر.

١٣- وقيل: إن الله -تعالىٰ- أقسم بالحروف المعجمة لشرفها وفضلها؛ لأنها مباني كتبه المنزلة.

١٤- وقيل: لما قال الكفار: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وأراد الله صلاحهم ونفعهم أورد عليهم ما لا يعرفونه؛ ليسكتهم، وليستمعوا لما يتلىٰ عليهم بعد.

١٥- وقيل: إنها تنبيهات للمخاطبين علىٰ قطع كلام واستئناف كلام آخر.

١٦- وقيل: إنها ثناء علىٰ الله.

١٧- وقيل: إنها معجزة دالة علىٰ صدقه.

١٨- وقيل: إنها دليل علىٰ أن القرآن مؤلف منها، فلا يكون قديمًا ....[(١)].

توضيح وترجيح:

هذه الأقوال السابقة اجتهادات شخصية لا ضابط لها من الشرع أو من اللغة.

والأوْلى أنها تنبيه لما يذكر بعدها، وخاصة أن معظم الحديث بعدها عن الكتاب، أو القرآن، وكان هذا هو شغلهم الشاغل، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: إنما يعلمه بشر، وقالوا: افتراه ... وهكذا، فكانت هذه دليلًا علىٰ غيرها، وأنه كله كلام الله المؤلف من هذه الحروف التي هي لغتكم، ولسانكم المبين، وهذا يشبه إلجام الخصم بالحجة، وكل سورة من سور القرآن لها مفتاح يناسبها، ويلفت من يتدبر إلىٰ أثر بدايتها في بناء سياقها، ومن ثم جعل البقاعي لكل سورة مقصدًا عامًا تدور حوله جل آياتها، وبداخلها مقاصد فرعية، فجعل السورة دائرة كبرىٰ تتخللها دوائر صغرىٰ، وتترابط عناصر بنائها، وتتعلق دواخلها بمفتاحها ويرتبط أولها بآخرها، وأخرها بأول التي بعدها ... وهكذا نجد أن كل سورة متصلة بما

(١) ينظر: تفسير الفخر الرازي، ج٢، ٦: ٩.

قبلها وبما بعدها، كما نجد أن كل آية في بناء السورة نتيجة للتي قبلها، ومقدمة ومهيئة للتي بعدها.

وهذا هو الإحكام الذي قاله ربنا ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:٢

ورجح السيوطي القول بأنها تنبيهات، واستدل بقول الخويبي: "القول بأنها تنبيهات جيد؛ لأن القرآن كلام عزيز، وفوائده عزيزة، فينبغي أن يرد علىٰ سمع منتبه، فكان من الجائز أن يكون الله قد علم في بعض الأوقات كون النبي في عالم البشر مشغولًا، فأمر جبريل بأن يقول عند نزوله: الم، والر، وحم، ليسمع النبي صوت جبريل فيقبل عليه، ويصغي إليه، قال: وإنما لم تستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه كـ: ألا، وأمَا؛ لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم، والقرآن كلام لا يشبه الكلام، فناسب أن يؤتىٰ فيه فألفاظ تنبيه لم تُعهد؛ لتكون أبلغ في قرع سمعه.(١)"

هذا كلام جيد، ولكني لا أرجحه؛ بل لا أكاد أرغب في سماعه؛ لأن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-لم يكن يشغله عن بيان الله شيء، بل كان يأتيه الوحي فيحرك به لسانه حرصًا وخوفًا من تفلته منه، وربنا يقول له: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ...﴾ [القيامة: ١٦]، فالنبي لم يكن في حاجة إلىٰ تنبيه يخبره بنزول الوحي، أو تنبيه لمهمته التي كلفه الله بها ... فقد فرّغه الله لذلك، ولم يشغله حتىٰ بقريضهم الذي يدل علىٰ قوة لسانهم فقال -سبحانه-: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ...

(١) الإتقان في علوم القرآن، ط٤، الحلبي، ١٩٧٨م، ٢/ ١٤.

﴿ [يس: ٦٩]، فهي تنبيهات لهم مخالفة لما عرفوه وألفوه من أدوات التنبيه المستعملة في بيانهم، وليست تنبيهات لرسول الله" صلىٰ الله عليه وسلم."

والأولىٰ من ذلك أن تُبحث علاقتها بالسياق الذي تصدرته، أو كانت لها الصدارة فيه؛ لبيان قيمة الكتاب، أو القرآن، أو التنزيل، أو الوحي، كما في: ﴿ حمٓ عٓسٓقٓ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ... ﴾ الآية، فهي، وإن كانت تنبيهات إلا أنها ضرب من الإعجاز الذي يدفع إلىٰ تحريك العقل، ولفت الذهن، وشحذ البصيرة، ومن ثم يتجلىٰ جمال دلالتها علىٰ التحدي، وبلاغتها في مقدمة سياق الكلام المعجز ببناء نظمه وخصائص سياق لفظه، فمثلًا تأتي (الم) البقرة لتلفت النظر إلىٰ الدلالة العظمىٰ علىٰ أن القرآن هدي؛ ليتبع، ودليل ذلك هو البداية بعد الحروف المقطعة بـ(ذلك الكتاب) أي الكتاب الكامل الذي يستأهل أي يسمىٰ كتابًا، ففيه العلو والعظمة والرفعة الدال عليها اسم الإشارة (ذلك)، والتعريف في الكتاب، ونفي الريب عنه مع عدم إثباته لغيره وتنكير (هدىً) الدالة علىٰ بلوغه أقصىٰ درجات الهداية، ثم تأتي بعد ذلك طبقات البشر في بداية السورة: الكافرون، المنافقون، والمؤمنون ... ثم تنسج السورة علىٰ مجموعة من الوقائع والأحداث الدالة علىٰ أن كلًا منها يحتاج إلىٰ طريق الهداية، حتىٰ مع الأنبياء، ففي قرب نهاية السورة يقول إبراهيم -عليه السلام-: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ ... وفعلًا دلّه الله علىٰ الطريق بطريقة عملية ﴿ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾، البقرة ٢٦٠ وقبله الذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها ... إلىٰ آخر الأحداث الدالة علىٰ طرق الهداية، وعلىٰ علو الكتاب، وأنه أساس الهداية، ولو تأملنا سورة آل عمران الداعية إلىٰ التوحيد لوجدنا أحداثها كذلك كلها تدل علىٰ

وحدانية الله، وقدرته الدالة علىٰ هذه الوحدانية، و(الم) في بدايتها لافتة أساسية لهذه الوحدانية التي تكمن فيها القدرة، فلكل سورة دلالة يكمن فيها جمال هذه الفواتح بالحروف المقطعة المنبهة علىٰ أحداث السورة وترابطها، وتواصل سياقها، وأنه لا يصلح تقديم حدث علىٰ حدث آخر معه في ذات السورة، وهذا هو الإحكام الذي قال فيه ربنا ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾، هود١ وهذه الفواتح بالحروف المقطعة إحكام من الإحكام الذي ليس كمثله إحكام، فإن كل ما قيل فيها يصلح فيها من وجهة نظر قائله، فإنه قول مبني علىٰ فهم معين، وتختلف الأفهام باختلاف العقول، وتتفاوت الأحكام بتفاوت الأفهام، وكل ذلك من قدرة العليم الخبير ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.البقرو١٤٨.

وهذا من جمال دلالة الحرف حين يذكر، وفي غير الحروف المقطعة قد يذكر الحرف بمسماه، لا باسمه كما هنا، فتكون له دلالة، وقد يحذف في سياق آخر فتكون له دلالة.

دلالة ذكر حرف المعنى وحذفه من خلال السياق:

بناء علىٰ ما سبق، فإن حرف المعنىٰ الذي نبحث دلالته قد يذكر، وقد يحذف، ولذكره دلالة، ولحذفه دلالة، وبراعة السياق في القرآن الكريم تتجلىٰ من خلال ذلك، فمثلًا يذكر النداء، دون أداته، أو يذكر الاستفهام وأداته محذوفة، كما أن بعض الجمل تُذكر فيها كلمة يفهم المراد بدونها كقوله -تعالىٰ-: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: ٢٦]، والسقف لا يكون إلا من فوق، ولكن ذكرها فيه جمال وسياقها له دلالة، تتمثل في إصابتهم، وإلحاق الضرر الذي يستحقونه بهم علىٰ وجه تأكيد المعنىٰ، وإتمام الهلاك، ولا يكون هذا إلا بها ... ونحو ذلك مما يجب الوقوف عليه هنا -إن شاء الله تعالىٰ.-

كما تحذف الكلمة وتبقىٰ دلالتها أعلىٰ مما لو كانت مذكورة، كما في حذف المسند مثلًا، وتذكر الكلمة في مكان وتحذف من آخر، وتقدم هنا، وتؤخر هناك.

ولما كان وكد هذه الدراسة حذف حرف المعنىٰ في مكان، وذكره في مكان آخر؛ لبيان بلاغته في كل سياق اكتفت بنماذج من ذلك؛ لكثرته في بيان الله -عز وجل- كما يأتي:

أولًا: حذف حرف النداء من سياق الكلام وقوة دلالته:

هذا من طبيعة اللغة التي نزل بها هذا الكتاب المحكم، وهو مما استعملته العرب في بيانها، وكان أصلًا في بلاغتها وبراعة ألسنتها، من باب الاعتماد علىٰ الحسّ، ثم الإيجاز الذي هو عروس الكلام وبه يتميز باعتبار الحال والمقام.

ولذلك ذكر فيه الشيخ عبد القاهر عبارة بليغة، لم تترك مجالًا لكلام آخر يقال في براعة الكلام إذا بني علىٰ ذلك، يقول عن الحذف بعمومه: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترىٰ به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن، وهذه جملة قد تنكرها حتىٰ تَخْبُرَ وتدفعها حتىٰ تنظر.(١)"

وندرس هنا من شواهد ذلك: حذف الحرف من الكلمة، والسياق ينطق بقوة دلالته .

ومن شواهد ذلك: مجيء كلمة (ربنا) في القرآن الكريم مقصودًا بها الدعاء نحو قوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] ... والمقصود: يا ربنا، وهي كثيرة في باب الدعاء، وكلها بحذف الحرف، ولا ريب أن

(١) دلائل الإعجاز، ١٤٦.

وراء ذلك دلالة تبرز جمال المعنىٰ مع إيجاز القول، والدلالة علىٰ قرب الله من عباده كما قال -سبحانه-: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ... ﴾، والقريب -من البشر-حين تناديه وأنت بليغ لا تحتاج ذكر حرف النداء، فما بال رب البشر؟! وهو الرحيم الودود؟

وبناء علىٰ ذلك فالدعاء بصيغة حذف حرف النداء وراءه دلائل وأسرار تكمن في سياق كل شاهد منها.

ومن شواهد ذلك أول دعاء بذكر هذا اللفظ (ربنا) في الكتاب العزيز: وردت هذه الكلمة (ربنا) في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة مع اختلاف موقعها الإعرابي، واختلاف المقام والسياق الذي وردت فيه.

مقامات ذكر الرب بالنداء وغيره:

في النداء: قد يقصد بها الدعاء، وقد يقصد بها مجرد الإخبار، وهذا كثير في القرآن الكريم، وقد تكون **تمهيداً للدعاء، ومقدمة له**، كما في قوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣.]

وتأتي في مقام الاعتذار المهيئ للدعاء كقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾[الأحزاب: ٦٧.]

وقد تكون مقدمة للتنزيه ومهيئة له، كقوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ... ﴾[آل عمران: ١٩١.]

وقد يقصد بها التحذير والوعيد، كقوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢.]

وقد تأتي في مقام الخوف والتمني كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ [النساء: ٧٧]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ ...﴾ [القصص: ٤٧.]

وقد تأتي في مقام التقرب دون نداء، كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٤.]

وقد تأتي في مقام الاعتذار كقوله -تعالىٰ-: ﴿ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣.]

وقد تأتي في مقام الحوار والتقرير كقوله -تعالىٰ-: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ ...﴾ [الأنعام: ٣٠.]

وتأتي في مقام تحقيق الوعد كقوله -تعالىٰ-: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗا﴾ [الأعراف: ٤٤.]

وقد تأتي في مقام القسم مثل قوله -تعالىٰ-: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، وكقوله -تعالىٰ-: ﴿قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ...﴾ [الأحقاف: ٤٣.]

وقد تأتي في مقام الاعتراف بالوحدانية كقوله -تعالىٰ-: ﴿ ... رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ [الكهف: ١٤.]

وقد تأتي في مقام الخوف والاعتذار، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥.]

وتأتي في مقام الإقرار بالنعم كقوله -تعالىٰ-: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠.]

وقد تأتي بعد فعل المشيئة لغرض الإنكار، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ... ﴾ [فصلت: ١٤.]

وقد تأتي في مقام الطلب لغير الدعاء بل للندم وطلب الاقتصاص كقوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩]، **ولات ساعة مندم.**

وتأتي في مقام البشارة، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقوله -تعالىٰ-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٣.]

وقد تأتي في مقام الرجاء، كقوله -تعالىٰ-: ﴿ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾ [القلم: ٣٢.]

وقد تأتي في مقام التأييد لغرض التأكيد كقوله -تعالىٰ-: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ١: ٣]، **ومن مقام التأكيد**

أيضًا قوله -تعالىٰ-: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]. هذه معظم المقامات التي ورد في سياق نصوصها، لفظ (ربنا) رفعًا ونصبًا وخفضًا.

وسأقف فقط عند ذكرها في مقام الدعاء، للبحث في جمال دلالة حرف النداء، والحال يقتضي بسط الكلام مع رب العالمين، ولكن دلالة الحذف أولىٰ هنا من دلالة الذكر التي يكون المقام فيها بسط الكلام مع رب العزة كما فعل موسىٰ -عليه السلام- حين قال له ربه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ولم يكتف بذكر المسند إليه، بل ذكر أوصافها ومنافعها؛ حبًّا لإطالة الوقوف مع رب العالمين فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨.]

وهنا في مقام الدعاء كان يجب ذكر ياء النداء؛ حبًا للإطالة في حضرة الذات الإلهية، ويكون للكلام جمال، وحسن وبهاء، ولكن حذفها أوفىٰ بالدلالة، وأبرز لجمال القرب ممن قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ فحذف الياء فيهما جميعًا يدل علىٰ أن الله قريب من عباده دائمًا.

ثانيا: ذكر حرف النداء مع كلمة"رب" في مقام خاص:

ذكر (يا) مع لفظ (رب):

لم تذكر الياء مع لفظ (ربنا) أبدًا في القرآن الكريم، ولكنها ذكرت مع كلمة (رب) فقط في **موضعين اثنين هما:**

الأول في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠]، ذكرت الياء هنا، مع أن المتحدث هو رسول الله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-أقرب الناس إلىٰ الله -عز وجل-مبالغة في التبرؤ في مقام التضرع، بما يتناسب مع حالة الندم التي جعلت الظالم يعض علىٰ يديه؛ أسفًا مما أصابه، بسبب اتباع الهوىٰ بموافقته من أضله، وتركه من يريد هدايته، بقوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩.]

فمقام المبالغة في الندم، والويل يستدعي أن يكون المقابل: المبالغة في بيان علة ذلك، وافتعالهم له بقوله "اتخذوا"؛ لأنهما كانوا يعرفون الحق من الباطل، ولكنهم كما وصفهم ربنا -سبحانه-: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣.]

وليس المقام مقام دعاء، ولكنه مقام استدلال علىٰ أسفهم البالغ، وندمهم الشديد، ومن ثم ذكرت الياء مع كلمة "رب" في غير مقام الدعاء في هذا السياق.

والثاني في قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٨-٨٩.]

والمقام هنا أيضًا ليس مقام دعاء، ولا أن الله بعيد فيناديه، ولكنه مقام الإفصاح في بُعدهم عن الله، مع إقرارهم بأنه الخالق ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لا يستطيعون القول بغير ذلك؛ حتىٰ لا يزاد اتهامهم في عقولهم ... ومع ذلك فهم للحق كارهون، كما وصفهم ربنا بقوله -سبحانه-: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٨.]

ولكن يلفت النظر هنا التعبير بقوله "وقيله" دون: وقوله، وقال الزمخشري: قراءة النصب والجر في "قيله" علىٰ إضمار حرف القسم وحذفه ... ويكون قوله "إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" جواب القسم، كأنه قيل: وأقسم بقيله يا رب، أو وقيله يا رب قسمي إن هؤلاء قوم لا يؤمنون (فاصفح عنهم) فأعرض عن دعوتهم ... وودعهم، وقل لهم (سلام) أي تسلُّم منكم ومتاركة.(١)...

و(قيله) بهذه الصياغة تدل علىٰ شدة حرص الرسول علىٰ إيمانهم دون جدوىٰ منهم، والله -سبحانه- يسلّيه بقوله -سبحانه-: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ... ﴾ أي لا تبالي بكفرهم، كما قال -سبحانه- في موقف آخر: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، (وقل سلام) من باب قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣.]

وختام الموقف بالتهديد ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه دلالة علىٰ الوعيد الذي يضاهي الجهد المبذول في إبلاغ الدعوة، ومقابلة ذلك بالجحود والنكران.

(١) الكشاف، ٤/ ٤٩٨ بشيء من الاختصار.

هذان فقط هما الموقفان اللذات ذكرت فيهما الياء مع لفظ (رب) وليسا في مقام الدعاء، ولكنهما في مقام الإخبار بحالة قوم لا يؤمنون ولا يرجى لهم الإيمان، كما تبين.

ومن ذلك يتجلىٰ جمال الدلالة حين يُذكر الحرف في المقام الذي لا يصلح بغيره، ولا يستقيم دونه، كما يتجلىٰ جمال الدلالة بذكر الحرف في المقام الذي لا يكون المراد إلا بذكره، وهو مقام الدعاء كما سبق، وشواهده كثيرة، نكتفي بدراسة بعضها لتكون دليلًا علىٰ غيرها مع اليقين بأن كل سياق له ما يناسبه، ولا يغني سياق عن سياق، ولا دلالة هذا عن دلالة ذلك، فالذي في قوله -تعالىٰ-: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ... ﴾ يختلف عن الذي في: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ عن الذي في: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ... ﴾ وهكذا.

ثالثا: أول دعاء بلفظ "ربنا" في القرآن الكريم:

ورد أول دعاء في القرآن الكريم بلفظ "ربنا" حسب ترتيب المصحف الشريف علىٰ لسان سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل-عليهما السلام-وهما يرفعان قواعد البيت الحرام، الذي لم يتوقف حوله الطواف إلىٰ أن تقوم الساعة، وهو ما حكاه القرآن الكريم في قول ربنا -سبحانه-: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[البقرة: ١٢٧-١٢٩]

فإذا تأملنا أول دعاء بلفظ (ربنا) في القرآن الكريم، نجده توالىٰ ثلاث مرات في سياق واحد، ونص مترابط، وحذفت منه ياء النداء؛ دلالة علىٰ الإقرار بأن الله قريب مجيب، وأن الداعي يدعو يظهر قلب مشتاق لا غفلة فيه، بل كله ثقة بإجابة ربه، وأن أول نداء بلفظ ربنا كان في حالة مشقة وعناء، ومع ذلك جاء التعبير بما يدل علىٰ الاعتراف بالضعف والتقصير بجانب نعم الله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ البقرة: ١٢٧

وجاء النداء الثاني بالجعل قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٨] **أي صيّرنا، أو وفقنا للاستسلام لأمرك، والاستقرار علىٰ طاعتك، ووجهنا لما ينفعنا، وتقبل توبتنا.**

والنداء الثالث قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾ [البقرة: ١٢٩]

فيه بالغ الحرص علىٰ عموم الصلاح، وأن يكون المبعوث إليهم منهم، فكان أول دعاء فيه الإقرار بأن الله سميع عليم، أي سميع لهم، عليم بأحوالهم، وذيل الثاني بـ"إنك أنت التواب الرحيم" لوجود الذرية والإقرار بالضعف الذي لا يسلم منه بشر، والثالث ذيل بالعزة والحكمة" إنك أنت العزيز الحكيم" فهو-سبحانه-غاب لا يغلب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم يضع كل شيء موضعه .

ونلحظ أن النداءات الثلاثة في هذا السياق تعطي دلالة عامة تتناسب مع مقصود سورة البقرة، الذي هو -كما قاله البقاعي-: "إقامة الدليل علىٰ أن الكتاب هدي ليتبع في كل ما قال.[1]"...

وعليه، فجمال الدلالة، وبلاغتها في هذا السياق يتدرج ليبدأ من الاعتراف بضعف العمل والتقصير فيه؛ أي تقبل عملنا بفضلك، ولا ترده علينا؛ إشعارًا بالاعتراف بالتقصير لحقارة العبد، وإن اجتهد في جنب عظمة مولاه، ولما تضمن سؤال القبول المشعر بخوف الرد، علم الناقد البصير بالتقصير علله بقوله (إنك) وأكده بقوله (أنت السميع العليم) أي فإن كنت سمعت، أو علمت منا حُسنًا فزده حسنًا، وإن كنت سمعت أو علمت غير ذلك من نحو قولٍ ناشئ عن اختلاج في النفس بما سببه كلال أو إعياء فاغفره.[2]"

(١) نظم الدرر، ١/ ٢٤.

(٢) السابق، ١/ ٢٤٢.

فالبداية استسلام وإقرار بضعف عمل العبد؛ لأن التاء في (تقبل) تدل علىٰ الطلب الذي يتناسب مع لفظ الدعاء بحذف حرف البعد (يا) وكأن الداعي واثق من قبول المدعو، وفيه دلالة علىٰ الأخذ بأسباب الدعاء قبل الدعاء، والاعتراف بالتقصير والتذلل من أسباب قبول الدعاء، بخلاف الغرور، والعُجْب.

وقيل: إن التقبل هنا مجاز عن الإثابة والرضا؛ لأن كل عمل يقبله الله -تعالىٰ- فهو يثيب صاحبه، ويرضاه منه، وفي اختيار صيغة (التفعل) اعتراف بالقصور؛ لما فيه من الإشعار بالتكلف في القبول[1]"...

أي أنه ذكر التقبل وأراد لازمه، من باب المجاز المرسل بعلاقة اللزوم؛ أي ذكر الملزوم وإرادة اللازم، وفيه يقول الراغب: والتقبل: قبول الشيء علىٰ وجه يقتضي ثوابًا.[2]...

وهذه أدنىٰ مراحل الطلب التي ارتقت بعد ذلك إلىٰ طلب أعلىٰ مما يدل علىٰ أن الطلب الأول وطأ للثاني، فقال سيدنا إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ... ﴾.

فلما اطمأن للقبول أظهر المراد من الطلب الأول، فحدث التدرج من خفي الاستسلام إلىٰ ظاهره، وهو عمومه له ولولده ولذريته، بالإضافة إلىٰ طلب الهداية للمناسك، وقبول التوبة عن كل تقصير، ظاهرًا يعرفه، أو خفيًا لا يدركه، وليس هذا له فقط، بل لذريته كلها علىٰ امتداد أزمانها، وتناسل ذرياتها..

ودرجة القرب في الدعاءين واحدة، فلم ترد ياء النداء فيهما، بدأ هنا بطلب القبول بقوة؛ لذا قال (تقبل) وظاهر اللفظ يدل علىٰ باطن المعنىٰ؛ لأن الألفاظ

(١) روح المعاني للألوسي، ج٢/ ٣٨٤.

(٢) المفردات، (قبل).

تحاكي المعاني وتدل عليها، ومن ثم كانت دلالة النص جامعة لمفهومه زمانًا، ومكانًا، ومطلوبًا.

فالزمان واضح في التعبير بالمضارع "يرفع" حكاية لحال ماضية، واستحضارًا لها، وكأنها الآن، وفي كل زمان، والمكان هو البيت الذي لا ينقطع الطواف حوله، والاستحضار لجمال المعاني في طلب الثواب في كل الأعمال؛ لأن الله سائل عنها، والأجر علىٰ قدر المشقة، لذا قال "إنك أنت" علىٰ وجه الخصوص (السميع) لدعائنا، سماعًا ترتقي به الدرجات، وتقبل به الأعمال (العليم) بمقصودنا، ثم يعلو الطلب إلىٰ فعل الجعل (واجعلنا)، وفيه يقول الراغب: جعل فعل عام في الأفعال كلها، وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ... ويتصرف علىٰ خمسة أوجه ...[1] يصلح منها في شاهدنا (صار) أي صيّرنا كذلك منقادين مستسلمين لأمرك، يقول فخر الدين الرازي:وجعلهما بهذه الصفة لا معنىٰ له إلا خلق ذلك فيهما، فإن الجعل عبارة عن الخلق، قال -تعالىٰ-: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام١] ثم يقول: لا نسلم أن الجعل عبارة عن الخلق والإيجاد، بل له معان أخرىٰ سوىٰ الخلق، منها (صير) قال -تعالىٰ-: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتٗا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورٗا ﴾ [الفرقان: ٤٧]، ثم يقول: لكن لم لا يجوز أن يكون المراد منه خلق الألطاف الداعية لهما إلىٰ الإسلام، وتوفيقهما لذلك، فمن وفقه الله لهذه الأمور حتىٰ يفعلها فقد جعله مسلمًا له .. وطلب ذلك في الزمان المستقبل لا ينافي حصوله في الحال ... أو أن يكون المراد منه الزيادة في الإسلام؛ كقوله -تعالىٰ-:

(١)المفردات، (جعل).

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح٤] و ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ...﴾.[محمد١٧]

وقوله "ربنا واجعلنا مسلمين لك" يفيد الحصر؛ أي أن نكون مسلمين لك لا لغيرك، وهذا يدل علىٰ أن كمال سعادة العبد في أن يكون مسلمًا لأحكام الله –تعالىٰ–وقضائه وقدره، وألا يكون ملتفت الخاطر إلىٰ شيء سواه.(١)...

فالتدرج هنا أدىٰ إلىٰ أمرين؛ أحدهما: تثبت الطلب، والثاني: التوسع فيه؛ ليخرج بالنص من مجال حبّ الذات والاكتفاء بذلك إلىٰ طلب إعمار الأرض زمانًا ومكانًا بذلك، إلىٰ ما هو أعلىٰ، وهو طلب الهداية إلىٰ معرفة المناسك، وكيفية أداء الفرائض، إلىٰ ما هو أكبر حماية للذات، والذوات البشرية المجبولة علىٰ النقص بطلب قبول التوبة التي تطهرها "وتب علينا."

ثم يأتي الترقي الذي بلغ الذروة في الدعاء حرصًا علىٰ الزمان كله، والنسل كله، وهو قوله –تعالىٰ–: "ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم."

طلب أولًا أن يكون المبعوث من جنسهم، والتعبير بقوله (منهم) فيه دلالة علىٰ أنه ليس المراد الجنس فقط، ولكن من بينهم ومن نسلهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، حتىٰ لا تكون لهم حجة في الاعتراض علىٰ دعوته، ثم حدد المهام التي يقوم بها، وهذا من أعلىٰ درجات القرب، ومن ثم قلت إن الطلب، أو الدّعاء، بلغ ذروته، فطلب المهام الآتية (يتلوا) و(يعلم) و(يزكي) وهذا الطلب أيضًا فيه ترق من الأدنىٰ للأعلىٰ، فالتلاوة تكون سببًا في التعلم، ومن ثم يكون التزكي كما سيأتي.

(١) ينظر تفسيره، ٢/ ٦٥.

فالدعاء هنا (ربنا) بإسقاط النداء فيه الدلالة علىٰ القرب الذي بينه وبين ربه – كما سبق– ولكن الطلبين السابقين (تقبل) و(اجعلنا مسلمين) فيهما التذلل والانكسار أمام الحضرة الربانية التي يصورها النص كله بما قبله وبما بعده، ولكن الطلب الثالث: (وابعث) وتحديد مهام المبعوث، فيه شيء من التمكن من درجة القرب، والحرص علىٰ نجاح الرسالة مهما حدث من تحديات ... ولذلك عبر بقول "وابعث" الدالة علىٰ الحركة، بل الإثارة والمادة –كما يقول ابن فارس– الباء والعين والثاء أصل واحد وهو الإثارة[1]، ويقول الراغب الأصفهاني: أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه، ويختلف البعث باختلاف ما علق به، فقد يقصد به إحياء الموتىٰ كما في قوله –تعالىٰ–: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، وقد يكون بمعنىٰ (قيض) كقوله –تعالىٰ–: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [المائدة: ٣١]، أي قيضه، وقد يقصد به الإثارة بلا توجّه إلىٰ مكان؛ كقوله –تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، أما قوله –تعالىٰ–: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦] فبمعنىٰ توجههم ومضيهم[2]).

أما موطن الشاهد في السياق الذي ندرسه "ربنا وابعث" فبمعنىٰ أرسل، وهذا الإرسال في باطنه معنىٰ الإثارة التي ذكرها ابن فارس والراغب، لأنه ليس مجرد إرسال، وإنما إرسالٌ تكون مهمته كما هي في السياق "يتلو ... ويعلمهم ... ويزكيهم ..."، وهذا ليس بالأمر الهين، ولكن يخففه قوله "رسولا منهم."

قال الزمخشري: أي من أنفسهم، ووصفه بذلك ليكون أشفق عليهم، ويكونوا أعزّ به، وأشرف، وأقرب للإجابة؛ لأنهم يعرفون منشأه وصدقه وأمانته ... وهذا

(١) مقاييس اللغة، (بعث).

(٢) ينظر: المفردات، (بعث).

قول رسول الله -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم-: سأخبركم بأول أمري: أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسىٰ، ورؤيا أمي التي رأيت حين وضعتني.(١)..

ومن هنا يكمن جمال الدلالة بهذا الترقي الفائق الصادر من مقام أبي الأنبياء إبراهيم -عليه السلام-الذي تدرج في حدود مهام من يبعثه الله، واستجاب الله دعوته، فكانت ركيزة الدعوة: تبليغ ما أنزل إليه من ربه، وتعليم أسس الشريعة؛ لأن كتاب الله فيه بيان كل شيء كما وصفه -سبحانه-: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩.]

ثم تأتي أعلىٰ مرحلة من مهام النبوة "ويزكيهم"، قال الزمخشري: أي يطهرهم من أرجاس الشرك، وأنجاس الشك، وقاذورات المعاصي، وهو إشارة إلىٰ التخلية، كما أن التعليم إشارة إلىٰ التحلية، ولعل تقديم الثاني علىٰ الأول لشرافته.(٢)"...

هذه دلالة لفظ ربنا في النص القرآني محذوفة أداة النداء في نص توالت فيه الكلمة (ربنا) ثلاث مرات بثلاثة طلبات، وليس في القرآن شاهد آخر مثله في هذا التوالي من نبي كما حدث من سيدنا إبراهيم.

ولكن لسيدنا إبراهيم دعاء آخر بنفس اللفظ (ربنا) وبهذه الكلمة (تقبل) ولكن مسبوقة بالواو (وتقبل)، وبعدها طلب المغفرة علىٰ الوجهين الخاص، والعام.

وتقف مع النص حتىٰ يتبين جمال الدلالة البلاغية في سياقه، قال -تعالىٰ-: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ

(١) الكشاف، ١/ ٣٨٦ باختصار.

(٢) الكشاف، ١/ ٣٨٧.

رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٣٩-٤١.]

بداية، نجد أن هذا النص مترابط مع سياقه كله، وأن الدعاء بدأ فيه من أول قوله -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا ... ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثم الدعاء الثاني في ذات السياق ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ثم يتدرج الدعاء في السياق لينتقل من العموم إلىٰ الخصوص في قوله ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾.

أول ما يلفت الذهن هنا هو علاقة هذا النص بمراحل الدعاء فيه عمومًا وخصوصًا، وتنوعًا تحتاج إليه كل حياة؛ حيث الدعاء بالأمن هو مبدأ الاستقرار، والدعاء بربط أفئدة الناس بالبيت فيه تعلق بالله، والدعاء بطلب الرزق لا يكون إلا بعد هذا التعلق برب العالمين، فنلحظ البناء المحكم في النص لتكون الدلالة محكمة ومتعلقة بمقصود هذه السورة الأعظم، الذي قال فيه البقاعي: "ومقصودها: التوحيد، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلىٰ الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه، المؤدي إليه، وأدل ما فيها علىٰ هذا المرام: قصة إبراهيم -عليه السلام- أما التوحيد فواضح، وأما أن الكتاب: فلأنه من جملة دعائه لذريته الذين

أسكنهم عند البيت المحرم، ذرية إسماعيل -عليه السلام-: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ ﴾.(١)

يتجلىٰ من ذلك أن هذا الدعاء امتداد لدعائه السابق في سورة البقرة؛ لأن ما طلبه هناك من تحديد مهام المبعوث يحتاج إلىٰ هذا الأمن الذي به تثمر الدعوة ثمرتها، وتؤدي مهمتها، كما أن ربط الأفئدة به دعوة إلىٰ انتشار الإسلام في كل ربوع الأرض، ثم يأتي الشاهد المراد هنا في قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾.

البداية هنا بقوله "رب" ولم يقل ربنا كما كان في سورة البقرة، وحرف النداء محذوف أيضًا؛ لأن المراد: يا رب، واستعاض عن (يا) بقوله عقبها (اجعلني) فـ (رب) هنا ليست هي مناط الدعاء، ولكنها هيأت له، وأصلها ربي، حذفت الياء تخفيفًا، كما هو معتاد عند الحذف غالبًا، وهي (أي الياء) مضاف إليه، كل هذا هيّأ لتخصيص الدعاء في قوله (اجعلني) فهذا الفعل (اجعل) يقال له في القرآن الكريم: فعل دعاء، فقبلها كان الطلب عامًا (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم)، وهنا: (اجعلني)، ونونه للوقاية -كما يقول النحاة- والياء مفعول به أول ومقيم مفعول به ثاني، ولم يقف تضرعه عند هذا الخصوص الذي في (رب) بحذف ياء المتكلم الدالة علىٰ هذا الخصوص، وحذفها أبلغ من ذكرها؛ لأن الحذف هنا يدل علىٰ انقطاعه لربه، فالقطع من الانقطاع، والحذف من صفاء القلب لرب العباد، وأنه لا ينشغل بسواه، وهكذا اللغة تتطابق مع واقع النفس، وتنطق بما يجول في الخاطر.

(١) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، مكتبة المعارف بالرياض، ط١٩٨٧م، ١٩٦/٢.

والإجمال حين يسبق التفصيل يدل دلالة بارعة في التعبير عن الشيء مجملًا لتشتاق النفس إليه مفصلًا، فلما قال (رب) بحذفين، أحدهما في أول الكلمة، والثاني في آخرها؛ لأن المقصود (يا ربي) دل علىٰ التشويق، وهنا يكمن جمال دلالته أي دلالة الحذف المحيط بجوانب الكلمة؛ لمعرفة جمالها الذي يتجلىٰ في مكمن الدعاء بعدها مكتمل الأركان، لا حذف فيه (اجعلني) فالحذف في الأولىٰ شوّق لمعرفة ما بعدها، ويزاد جماله في تحديد المفعول به (مقيم الصلاة) وهذا أبرع الدعاء وأرقاه؛ لأن الصلاة عماد الدين، فلم يطلب حين يطلب لنفسه فرعًا من فروع الشريعة، وإنما طلب لبها وأصلها الذي به تستقيم كل أمورها، والتعبير بقوله (مقيم) ضرب من الاستمرار؛ أي دائم الإقامة في الحل والترحال، في الصحة والمرض، ثم مدّ الطلب لذريته من بعده؛ لأنه قدوتهم، وفي ذلك دعاء باستمرار إقامته؛ لأن عمله بذلك لم ينقطع، فهو باق ببقاء ذريته، ثم يرتقي التضرع والتقرب في لب شاهدنا هنا (ربنا) بهذا الجمع الذي أدخل فيه ذريته معه، وهنا يرتقي الطلب وينتقل من العموم إلىٰ الأعم، بهذه الإضافة (نا) وما فيها من امتداد يحقق طلب الأول في سورة البقرة (ربنا وتقبل) وهذه الواو لافتة للذهن، ولكني أرىٰ في ذكرها (وتقبل) طلب الاستمرار لدعوته، وألا تنقطع بمماته، فكأنه يطلب بقاء التقبل، وكأن هذا الدعاء قائم لا ينقطع، وموقع الواو هنا (عاطفة) لدعاء علىٰ دعاء، ولم يقل أحد من العلماء فيه أكثر من أنها عاطفة، ولكني أفهم منها الزيادة في الطلب؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- لو قال: ربنا تقبل دعاء، لاستوفىٰ مطلوبه، وبناء علىٰ ذلك فحرف العطف هذا يحقق المعنىٰ الذي يريده سيدنا إبراهيم، وهو أن يوفقه الله لإقامة الصلاة؛ أي القيام بها علىٰ أكمل وجه، وكذا كل من يأتي من ذريته، وأن يزيده علىٰ ذلك تقبل دعاءه الذي مضىٰ، والذي سيأتي، ولذلك ختم ابتهالاته بطلب المغفرة علىٰ وجهي الخصوص والعموم.

وقال الطبري في المعنىٰ: "وتقبل عملي الذي أعمله لك، وعبادتي إياك.(١)"

وقال البغوي: "أي عملي وعبادتي سمىٰ العبادة دعاء، وجاء في الحديث: الدعاء مخ العبادة.(٢)"

وأرجح أن يكون المعنىٰ بهذه الواو: (وتقبل دعاء) علىٰ الإطلاق، عملًا كان أو عبادة؛ لأن العمل عبادة، فمع أنها عاطفة إلا أن ذكرها لغرض القبول لكل ما دعا به، ولكل ما يدعو به هو والمقبولين من ذريته؛ لأنهم منه، والعلماء يقولون: حذفت ياء المتكلم تخفيفًا، وأصلها: دعائي، ولكن التخفيف الناجم من الحذف دليل الإطلاق والعموم في الطلب، وقد علم أن رحمة الله وسعت كل شيء، ومن ثم امتد الطلب بعد ذلك إلىٰ المغفرة؛ لتكون العبادة وما يتبعها من عمل، خالصة لله لا يشوبها شيء يقلل أجرها، فنادىٰ بالإضافة إلىٰ ضمير الجمع أيضًا (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب).

وفيه يقول فخر الدين الرازي: لقائل أن يقول: طلب المغفرة إنما يكون بعد سابقة الذنب، فهذا يدل علىٰ أنه كان قد صدر الذنب عنه، وإن كان قاطعًا بأن الله يغفر له، فكيف طلب تحصيل ما كان قاطعًا بحصوله؟

والجواب: المقصود منه الالتجاء إلىٰ الله -تعالىٰ-وقطع الطمع إلا من فضله وكرمه ورحمته.(٣)"

وفي النهاية يتجلىٰ جمال الدلالة في هذا التدرج أيضًا، وأن هذا الدعاء في سورة إبراهيم جاء إتمامًا لدعائه السابق في نص سورة البقرة السابق.

❁❁❁❁❁

(١) تفسيره، دار هجر، ط١، ٣/ ٧٠٢.

(٢) تفسيره المسمىٰ معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، ط٤، ١٩٩٧م، ٤/ ٣٥٨.

(٣) تفسيره، ١٩/ ١٤٢.

رابعا" دعاء سيدنا عيسى -عليه السلام -بلفظ "ربنا:"

ومن دعاء الأنبياء بنفس اللفظ (ربنا)، دعاء سيدنا عيسىٰ -عليه السلام-ولكنه مسبوق بكلمة (اللهم)، وذلك في قوله -تعالىٰ-حكاية عنه ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤.]

لما استعظم القوم نزول المائد، وعللوا طلبهم ظانين استبعاد ذلك افتتح سيدنا عيسىٰ -عليه السلام-إجابة طلبه، ورفعه إلىٰ رب العالمين بالاسم الأعظم، كما يقول البقاعي: "افتتح دعاءه بالاسم الأعظم، ثم بوصف الإحسان، فقال (ربنا) أي أيها المحسن إلينا.(١)"

وهذا مما يؤكد مطابقة النص للمقام الذي كان هذا الدعاء سببًا فيه، فقد قالوا: (هل يستطيع ربك ...) بلفظ الرب الدال علىٰ الإحسان؛ أي المحسن إليك، فأجابهم بلفظ الهيمنة "اللهم" لأنه أصله: يا الله، فزيدت الميم (اللهم) في آخرها عوضًا عن الياء في أولها، قال سيبويه: "وقولهم: اللهم، حذفوا "يا" وألحقوا الميم عوضًا، وشددوا الميم؛ لأن يكون علىٰ عدة "يا"؛ لأن "يا" حرفان، وخصوا الميم لأنها تقع زائدة في أواخر الأسماء، نحو: "زرقم"، و"ستهم" و"دلقم"، ولا يقع هذا الحرف إلا في النداء، وقال الفراء: إن الأصل في هذا الحرف "يا الله أمنا بخير(٢)"...

وجمال التعبير هنا يدل علىٰ قصد الوحدانية من جانب، وعلىٰ بيان القدرة الإلهية التي شككوا فيها من جانب آخر حين قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ

(١) نظم الدر، ٢/ ٥٧١.

(٢) ينظر: معاني القرآن ١/ ٢٠٣

عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴾ وفاء لهم بما طلبوا، وهذا يتناسب مع مقصود السورة، وهو: الوفاء بما هدىٰ إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخاق، ورحمة الخلائق شكرًا للنعمة، واستدفاعًا للنقمة[1]".)

فجمع سيدنا عيسىٰ -عليه السلام- في جوابه لهم ما يدل علىٰ وحدانية الخالق، وبيان عظمته، وإحسانه لخلقه بجوابه لهم، فقال: "اللهم ربنا"، ولم ترد في القرآن في غير هذا الموضع، وكذا طلب المائدة لم يرد إلا في هذا الموضع، فجمال الدلالة في مواءمة الجواب للسؤال، ومطابقة المقال للمقام.

ومما سبق يتبين أن أكثر دعاء ذكرت فيه كلمة (ربنا) بحذف حرف النداء كان من سيدنا إبراهيم -عليه السلام- وذلك في سورتي البقرة، وإبراهيم، وأن الدعاء الوحيد الذي سبق فيه لفظ ربنا" بكلمة "اللهم" هو ما كان من سيدنا عيسىٰ -عليه السلام- إجابة لطلب الحواريين".

ولكن وردت كلمة (ربنا) في باب دعاء المؤمنين، بتوجيه من الرحمن الرحيم، أكثر من تكرارها في كلام سيدنا إبراهيم -عليه السلام-، حيث وردت عند سيدنا إبراهيم ثلاث مرات متواليات، وفي دعاء المؤمنين وردت أربع مرات متواليات في ختام سورة البقرة، وذلك في قوله -تعالىٰ-: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ

(١) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، ٢/ ١٠٤.

لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ ۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٢٨٥-٢٨٦.]

ونختم بلاغة الدلالة في سياق النص الذي ذكر فيه لفظ (ربنا) محذوف حرف النداء بهذا الشاهد من سورة البقرة: وبناء علىٰ ما سبق تبين أن الكلمة لبنة في بناء النص، ومع ذلك لها أثر كبير في تجلية مراده، ولولاها لما توصلنا منه إلىٰ دلالة معينة، فالكلمة مع جيرانها ليست معزولة عن سياقها هي بداية الخيط، وأول الطريق لتحديد جمال الدلالة وبلاغة التعبير في سياق النص، فمنها أيضًا مع السياق تستخرج الدلالات البلاغية، والأحكام الفقهية، ولا تتجلىٰ المعاني المرادة إلا بها، وهذا هو قول الشاطبي: "الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم بناء علىٰ أن العرب إنما كانت عنايتها بالمعاني، وإنما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو سيلة إلىٰ تحصيل المعنىٰ المراد.(١)"

والاعتناء ببناء الألفاظ أو الكلمات هو أساس الاعتناء بقوة المعنىٰ والوصول إلىٰ جمال الدلالة فيه، والعرب كانوا يفعلون ذلك، وبرعوا فيه، ومن ثم نزل القرآن بلغتهم، وعلىٰ نهج بيانهم، وإلا لما صلح أن يتحداهم، فقد تحداهم من جنس ما برعوا فيه، ويبين ابن جني هذا الموقف العربي فيقول:

"فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها، وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها، وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها، وتشريف منها، ونظير ذلك: إصلاح الوعاء

(١) الموافقات، ٢/ ١٣٨.

وتحصينه، وتزكيته، وتقديسه، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعىٰ عليه وجواره بما يعطر بشره ولا يعر جوهره." (١)

ومن هذا المنطلق كانت كلمة (ربنا) في باب الدعاء مذكورة الياء لها دلالة -كما سبق- وكذلك محذوفة الياء لها دلالة، ولكل مقام مقال، وإذا كانت جاءت في دعاء الأنبياء علىٰ لسان سيدنا إبراهيم أكثر ما جاءت ثلاث مرات متواليات، فإنها في شاهدنا هذا في توجيه الله للطائعين جاءت أربع مرات متواليات، وليس هذا في نص قرآني آخر.

وكانت بداية النص إخبارًا بالوعي البالغ بأهمية البناء، فالرسول -صلَّىٰ الله عليه وسلَّم- هو المبلغ عن الله، وهو الموحىٰ إليه بهذا البلاغ، فلا شك في إيمانه، والحالة هذه، ولكن الله أخبر بإيمانه بما أنزل إليه؛ تثبيتًا للمؤمنين ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، وتمهيدًا للوصول إلىٰ المطلوب، وهو طلب المغفرة.

وكما سبق في دعاء سيدنا إبراهيم كان آخر شيء ارتقىٰ إليه الطلب هو طلب المغفرة: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ إبراهيم: ٤١

فحتىٰ يرقىٰ الطلب هنا ويكون عن يقين، لا بد من تقديم أسبابه، ومن ثم بدأ هنا بـ الرسول، "آمن الرسول"، ثم ثنّىٰ بالمؤمنين "والمؤمنون"، ثم العموم في قوله -سبحانه- "كل آمن بالله ...." وفيه يقول الزركشي: "فبدأ بالإيمان بالله؛ لأنه قد يحصل بدليل العقل، والعقل سابق في الوجود علىٰ الشرع، ثم قال: "وملائكته" مراعاة لإيمان الرسول فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولًا، ثم بالكتاب الذي

(١) الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤، ١/ ٣١٨.

نزل به جبريل، ثم بمعرفة نفسه أنه الرسول."[1] كل هذا وما بعده من السياق استدعاه طلب الدعاء بالمغفرة.

وكلمة "ربنا" بما فيها من الإحسان، استدعت كل ذلك، ومن ثم كانت دلالة الكلمة في بناء السياق، والسياق كله إلىٰ آخر السورة اصطفاء كما قال السيوطي، وأخرج الطبراني عن عقبة بن عامر قال: "ترددوا في الآيتين من آخر سورة البقرة (آمن الرسول) إلىٰ خاتمتها، فإن الله اصطفىٰ بها محمدًا"[2]، حيث فيها ترتيب أركان الإيمان المعروفة واستدعاء بعضها لبعض، وكانت المحصّلة (سمعنا وأطعنا).

وفيه يقول الشيخ دراز ملخصًا مجيء كلمة (ربنا) في السياق بعد طلب المغفرة ثلاث مرات: "وقالوا سمعنا وأطعنا؛ وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها في اتباعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، فتحًا لِباب الأمر علىٰ مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين، فليبسطوا إذًا أكفهم مبتهلين: ربنا ربنا ربنا أنت مولانا فانصرنا علىٰ القوم الكافرين.[3]"

فكما كانت أركان الإيمان والإقرار بها، والسمع والطاعة لها توطئة لطلب المغفرة، كانت كلها وما بعدها (ربنا لا تؤاخذنا) (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته علىٰ الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا) كان كل هذا تمهيدًا للطلب الأعلىٰ (وانصرنا علىٰ القوم الكافرين)، ويؤخذ من هذا: أن تحقيق وعد الله للمؤمنين بالنصر في قوله -سبحانه-

(١) البرهان، ٣/ ٣٤٥.

(٢) الإتقان، ١/ ١١٤

(٣) النبأ العظيم، دار الثقافة، الدوحة، طبعة ١٩٨٥م، ٢١٠.

: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا بد أن يسبق بالأسباب المؤدية إليه؛ ليعرف الناس أن نجاح الحياة بنجاح الأسباب، والوصول إلىٰ المراد ليس بالأمر الهين...

واللفظ لا يدل علىٰ مراده إلا بسياقه، وإن دل معناه مفردًا علىٰ معنىٰ معين ككلمة (ربنا) الدالة علىٰ الشفقة والإحسان، واسم الجلالة (الله) الدال علىٰ القوة والهيمنة ... فهذه دلالات فردية لا تكون إلا جزءًا من جمال الدلالة الكبرىٰ في بناء النص الذي يصل بدارسه إلىٰ الثمرة المرجوة.

ويكفي أن أسوق دليلًا علىٰ ذلك من كلام الشيخ عبد القاهر وهو يقول: "اعلم أن هاهنا أصلًا أنت ترىٰ الناس فيه في صورة من يعرف من جانب، وينكر من آخر، وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلىٰ بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم.(١)"

فكل كلمة ركن من أركان السياق الذي نبحث فيه بلاغة الدلالة، وعلاقتها بسياقه، كما تبين أن جمالها في ذكر لفظ ربنا في مقام الدعاء أربع مرات في خواتيم سورة البقرة، جاء الدعاء به توطئة لأهم طلبين في حياة الإنسان هما: المغفرة، والنصر الذي ختمت به السورة "وانصرنا علىٰ القوم الكافرين."

❁❁❁❁❁

(١) دلائل الإعجاز ٥٣٩ وينظر معاني القرآن، تحقيق: محمد علي الصابوني، ط١، ١٤٠٩هـ، ٦/ ١٩٦، وينظر: تفسير القرطبي، ١٥/ ٢٨٥، وينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للنيسابوري، تحقيق: سعاد بن صالح بن سعيد، نشر جامعة أم القرىٰ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٢/ ١٢٦٥.

خامسا: بلاغة ذكر الحرف وحذفه في سياق واحد، وفي سياقين متباعدين:

وهناك كلمات يستقيم فيها جمال الدلالة بذكر حرف المعنىٰ، وأخرىٰ يستقيم فيها جمال الدلالة بحذف نفس الحرف، وهما في نص واحد وسياق مترابط يجمع بين الشيء وضده، وقد يحدث هذا الحذف في سياقين متباعدين مكانًا، هذا في سورة، وذاك في سورة أخرىٰ.

ولنبدأ بالكلمة الواحدة التي سبقتها الواو في آية، وحذفت قبلها الواو في آية أخرىٰ، وهما في سياق واحد ويجمعهما نص واحد.

وذلك في قوله تعَالَىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ ﴾ الزمر: ٧١

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾ الزمر: ٧٣

الواو في قوله -تعالىٰ-: (وفتحت) ذكرت في الحديث عن أهل الجنة، وحذفت في الحديث عن أهل النار، وهذا يدل علىٰ أن أهل الجنة ذهبوا إليها وهي مستعدة متهيئة لهم، كما قال -تعالىٰ-: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾ [ص: ٥٠] ففي ذكر الواو تكريم لهم، وجمال دلالة ذكر الواو هنا هو التكريم، كما أن جمالها في الحديث عن أهل النار بحذف الواو (فتحت) يدل علىٰ الذلة والإهانة.

ولكن العلماء اختلفوا في هذه الواو، فقال أبو جعفر النحاس: "..... الكوفيون يذهبون إلىٰ أن الواو زائدة، وهذا خطأ عند البصريين؛ لأن الواو تفيد معنىٰ العطف،

ولا يجوز أن تزاد، قال محمد بن يزيد: المعنىٰ: حتىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها سعدوا.(١)"

وقيل: وحذف الجواب بليغ في كلام العرب، وقيل: الواو واو الحال؛ أي تجدونها عند المجيء مفتحة، وهذا هو الراجح فيها عندي، ويعني هذا أن جواب "إذا" كله محذوف، تقديره (سعدوا).

ويرىٰ بعض العلماء أن الحذف هنا أبلغ من الذكر؛ لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر علىٰ الوجه الذي تضمنه البيان؛ أي حصلوا علىٰ النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير.(٢)

وعلىٰ هذا فحذف الواو في الحديث عن أهل النار (حتىٰ إذا جاءوها فتحت أبوابها) جعل (فتحت) جوابًا لـ (إذا) الشرطية، وذكرها في الحديث عن اهل الجنة (حتىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها) دل علىٰ حذف الجواب، وأنه أعلىٰ من أن يحدد بناء علىٰ الحديث الشريف: "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر"، وفيه -كما سبق- إهانة وذلة لأهل النار، وتكريم وتشريف لأهل الجنة، **ولذا قال أبو السعود**: (وفتحت أبوابها) وقرئ بالتشديد وجواب إذا محذوف للإيذان بأن لهم حينئذٍ من فنون الكرامات ما لا يَحدِقُ به نطاق العبارات، كأنه قيل: حتىٰ إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها(٣) "

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للنحاس ٤/ ١٧ تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم الطبعة الأولىٰ دار الكتب العلمية بيروت، وينظر: تفسير القرطبي ١٥/ ٢٨٥، وينظر: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للنيسابوري، تحقيق: سعاد بن صالح بن سعيد، نشر جامعة أم القرىٰ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ٢/ ١٢٦٥.

(٢) ينظر الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط٣، ١٠٥.

(٣) تفسيره ٧/ ٢٦٤ دار إحياء التراث.

وربط الإسكافي في دلالة ذكر الواو وحذفها بما يشبه أحوال أهل الدنيا، من أن جهنم محبس شديد لا يفتح إلا لداخل أو خارج، وجهنم أهولها أمرًا، وأبلغها عقابًا، لذا كان الإخبار عنها عما شوهد من أحوال الحبوس التي تضيق علىٰ محبوسها، فوقع الفتح عقيب مجيئها ليتطابق لذلك اللفظ والمعنىٰ، ولم يكن هناك حذف، أما الجنة فلأن من فيها يتشوفون للقاء أهلها، فمن الطبيعي أن تفتح لهم الأبواب استبشارًا بقدومهم، وتطلعًا إليهم، ويكون ذلك قبل مجيئهم، فيكون حذف الجزاء وإدخال الواو علىٰ الفعل المعطوف عليه لذلك.[1]

ويتطابق مع دلالة حذف الواو في الحديث عن أهل النار، سياق التأنيب والإقرار منهم، وذلك في قول الخزنة لهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ ...﴾.

كما يتطابق السياق مع ذكرها في الحديث عن أهل الجنة بالتحية وحسن الاستقبال، ودعاء الملائكة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ فالسياق تواءم مع حذف الواو وذكرها حتىٰ أبرز لكل فريق ما يستحق، فالإنذار والوعيد لهؤلاء والتحية والبشارة والوعد الحسن لهؤلاء ... وكان الموقف موقف تسليم للفريقين، فأهل النار اعترفوا وقالوا ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وأهل الجنة فرحوا واستبشروا، وحمدوا الله -عز وجل- وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وليس أدل علىٰ ذلك من ترابط الدلالة مع السياق، وأنه هو المهيمن علىٰ جمالها، وأنها لا تخرج ولا تستقيم إلا به.

(١) ينظر: درة التنزيل وغرة التأويل، المكتبة التوفيقية، ٢٩٢.

دلالة ذكر الواو وحذفها في سياقين متباعدين:

وقد تذكر الواو وتحذف في خبر واحد، ولكنه في سياقين متباعدين مكانًا، متقاربين معنىٰ ودلالة، أحدهما في سورة البقرة، والآخر في سورة إبراهيم، والكلمة التي دخلت عليها الواو أو حذفت منها ليس لها نظير في القرآن الكريم علىٰ رسمها وهيأتها.

فأما آية البقرة فقوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩].

وآية إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦].

بداية، نلحظ أنه في آية البقرة إخبار من الله عن الله -عز وجل-يخاطب بني إسرائيل بنعمه التي أنعم بها عليهم، كما في سابق الآيات من قوله -تعالىٰ- بالخطاب الصريح ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾، ونجيناكم هنا كما قال البقاعي من التنجية، وهي تكرار النجاة، والنجاة معناه رفع علىٰ النجوة، وهو المرتفع من الأرض الذي هو مخلص مما ينال من الوهاد وخبث الأرض من هلاك بسيل ماء ونحوه.[1]"

(١) نظم الدر، ١/ ١٢٩.

ولكنه كان في الثانية خطابًا من سيدنا موسىٰ -عليه السلام-لقومه، مذكّرًا لهم بنعمة الله عليهم، ولذلك قال: "إذ أنجاكم .." فهنا سرعة إنقاذ، أي دفعة واحدة، ولذلك ذكرها في إنجائهم من الغرق ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٠]، والإنجاء من الإغراق لا يتحمل التمهل، وهنا لا تكرار في النجاة كما في آية البقرة، وإنما هي نجاة واحدة، ولذلك ذكرت الواو في "ويذبحون" لأن الله نجاهم من هذه وتلك دفعة واحدة، أما آية البقرة فتكررت فيها أنواع النعم التي أولها: أنه -سبحانه-فضلهم علىٰ العالمين، وثانيها: نجاهم من آل فرعون، وثالثها: أنه أنجاهم وأغرق آل فرعون، وهنا ذكر الفعل بالهمزة لسرعة الإنقاذ من الغرق، ثم عفوه عنهم بعد اتخاذهم العجل.

ومن هنا يتبين: أن حذف الواو من قوله "يذبحون" في آية البقرة؛ أنها جاءت مفسرة لقوله "يسومونكم سوء العذاب" وذكرت في آية إبراهيم علىٰ أنها نوع آخر من العذاب، والعذاب قد يشتق بعضه من بعض، فالنوع الواحد منه قد يتفرع، وقد يدمج، فهو في آية البقرة أدمج وصار نوعًا واحدًا يوضح لفظ فيه لفظًا، أو يكون عامًا وخاصًّا، وقد يُنص علىٰ فروعه كما في آية إبراهيم؛ لأن المتحدث في آية إبراهيم بشر، وهو موسىٰ -عليه السلام-، ففرّع العذاب، وعدّد أنواعه، أما المتحدث في آية البقرة فهو الله مباشرة، لذلك جاء الفعل نجىٰ دون الهمزة علىٰ وزن (فعّل) مما يدل علىٰ تكرارها، ومن رحمته بهم جعل التذبيح نوعًا من التسويم، والتضعيف في آية البقرة يتناسب مع عظمة النعم التي يذكرهم بها، وذكر أبو حيان: أن الإنجاء من عدوهم هو أعظم النعم، وقرئ (أنجيناكم) والهمزة للتعدية في المفعول، فالتضعيف

في (نجيناكم)، وذكر بعضهم أنه قرأ (أنجيتكم) فيكون الضمير موافقًا للضمير في (نعمتي).(١)

وعلىٰ ذلك فقوله (يذبحون) من غير الواو في آية البقرة متناسب مع التضعيف في آية البقرة (نجيناكم) ومجيء الواو (ويذبحون) في آية إبراهيم تتناسب مع التعدية بالهمزة (أنجيناكم) والتعدية تدل علىٰ تعدد أنواع العذاب، وأن (يسومونكم) نوع من العذاب يتقدم الذبح، والفعل (سوم) نوع من التعذيب النفسي، يقول البقاعي: "سماه بذلك لأنه أشد البلاء علىٰ النفس لما فيه من استحقارها من السوم، وهو تعذيب بتهاون بالمعذب، والسوم ما يشتد تنكر النفس له وتكرّهها"(٢)، وفي ذلك يقول الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ولا يلتئم ما جرح اللسان

أما التذبيح فعذاب جسدي ظاهر، وعلىٰ ذلك فالتعدية بالهمزة في آية إبراهيمتناسب ذكر الواو في قوله: "ويذبحون"، وأن العذاب أنواع: تقتل النفس قبل قتل الجسد، واستبقاء البناء للخدمة فيه إهانة للنفس أيضًا ... والتضعيف في آية البقرة يناسبه حذف الواو من (يذبحون)، ومن ثم تخلص دلالة حذف الواو من الفعل إلىٰ جلالة النعم، وكونها أعلىٰ من أن تفصّل؛ لأن نعم الله ظاهرة وباطنة لا تحصىٰ ولا تعد، ولما كان البلاغ من سيدنا موسىٰ قال (ويذبحون) علىٰ التفصيل لقوة العذاب من منظور البشر، ومضاعفته ودمجه، حيث كان الحديث من الله مباشرة، ويتعاون مع السياقين التضعيف مع حذف الواو في آية البقرة (نجيناكم)

(١) ينظر: البحر المحيط، دار الفكر، ١/ ١٨٦.

(٢) نظم الدرر، ١/ ١٣٠.

والتعدية مع تعديد الأنواع (أنجيناكم) في آية إبراهيم، فكان السياق موجهًا لجمال الدلالة في النصين الكريمين.

ولكنه في سورة الأعراف استبدل يُقتّلون بيذبحون، فقال -تعالىٰ-: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٤١].

يقول الغرناطي: "وعبر في سورة الأعراف بالقتل؛ لأنه أوجز من لفظ يذبحون لأجل التضعيف؛ إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه، وقد حصلت صفة القتل في سورة البقرة فأحرز الإيجاز في الكل، وجاء علىٰ ما يجب ويناسب، والله أعلم.(١)"

ومن وجهة نظري أن هذا جواب غير مقنع لمن يتدبر الفرق بين مادة (ذبح) ومادة (قتل)، فالذبح يدل علىٰ الشقّ، يقول ابن فارس: الذال والباء والحاء أصل واحد وهو يدل علىٰ الشق، ويقول الراغب: أصل الذبح: شق حلق الحيوانات ... وقوله -تعالىٰ- ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ علىٰ التكثير؛ أي يذبح بعضهم إثر بعض.(٢)"....

أما القتل، فيقول ابن فارس: القاف والتاء واللام أصل صحيح يدل علىٰ إذلال وإماتة، ويقول الراغب: أصل القتل: إزالة الروح عن الجسد كالموت إذا اعتبر بفعل

(١) ملاك التأويل، ١/ ٢٣.

(٢) ينظر: مقاييس اللغة، والمفردات، (ذبح).

المتولي لذلك، يقال: قتل، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال: موت، قال -تعالىٰ-: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [(١)آل عمران: ١٤٤.[

وبناء علىٰ ذلك فإن التعبير في سورة الأعراف أشد من التعبير في سورتي البقرة وإبراهيم، وذلك يتناسب مع مقصود كل سورة، فسورة البقرة كما سبق مقصودها: "الدلالة علىٰ أن الكتاب هدي ليتبع، والتذكير بالنعم فيها من الردع والزجر الذي يؤدي إلىٰ طريق الهداية، وسورة إبراهيم كما قال البقاعي: مقصودها التوحيد، وبيان أن هذا الكتاب غاية البلاغ إلىٰ الله؛ لأنه كافل ببيان الصراط الدال عليه المؤدي إليه.(٢)"

ومقصود سورة الأعراف: إنذار المعرضين، وتحذيرهم من القوارع التي أحلها بالماضين، وسياق النص أشار إلىٰ جلافتهم، وعلوهم في الجحود والنكران لكل نعم الله عليهم، كما قال -سبحانه-: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]، فهذا دل علىٰ غرورهم، وجهلهم، واقتدائهم بمن قبلهم في الجهل والضلال، لذلك قال (متبر) أي مفتت ومهلك، فناسب هنا أن يعبر بالقتل في التذكير بالنعم العظيمة، ولم يكتف بالذبح؛ لأن الذبح تذكر بالنعم بليونة قول يتناسب مع الدعوة إلىٰ طريق الهداية كما هو مقصود سورة البقرة، أو الدعوة إلىٰ التوحيد، كما هو مقصود سورة إبراهيم، ولكن لما حدث التجاوز في القول والاعتداء فيه في سورة الأعراف عبر بالقتل الدال علىٰ الإهانة والتمزيق، وفيه كما قال ابن فارس: الإذلال الذي يتناسب

(١) المصدران السابقان، (قتل).

(٢) نظم الدرر، ٤/ ١٦٥.

مع علوهم، وطلبهم ما لا يطلب بعد بيان كل هذه النعم، التي أولها في سياق سورة الأعراف قوله -تعالىٰ-: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤]

وفيه يقول البقاعي: عدل عن الذبح -الذي هو في الأصل لمطلق الشنق-إلىٰ التعبير بالقتل؛ لأنه أدل علىٰ الإماتة وأهز؛ لأنه قد يكون علىٰ هيئة شديدة بشعة كالتقطيع والنخس والخبط وغير ذلك، مع أنه لا بد فيه من تفويت ذلك فقال (يقتلون) أي تقتيلًا كثيرًا، (أبناءكم) ودل علىٰ حقيقة القتل بقوله (ويستحيون).[1]

وجمال الدلالة استوفىٰ حقه من جمال السياق، وتناسبه للموقف وتغطية كل نص للهدف المنوط به، وهنا جاءت (يقتلون) من غير واو لتدل علىٰ أن سوء العذاب هنا شكلًا ومضمونًا، وهكذا الحرف يذكر مع الكلمة لدلالة يشعّها السياق، ويذكر مع نفس الكلمة لدلالة يجليها السياق أيضًا، ولكل مقام مقال.

ومن دلالات حذف الواو وذكرها مع كلمة واحدة في سياقين متباعدين أيضا:

قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، حيث دخلت الواو هنا علىٰ قوله -تعالىٰ-: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وحذفت في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]

(١) السابق، ٣/ ١٠٦.

وبين الآيتين عدة فروق، فهناك "وإذ قلنا" وهنا "وإذ قيل" وهنا ذكرت كلمة "لهم" وليست هناك، وهنا (اسكنوا) وهناك (ادخلوا) وهنا "وكلوا منها حيث شئتم" وهناك "فكلوا منها حيث شئتم رغدا"، وهنا "وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا" وهناك "وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة"، وهنا "نغفر لكم خطيئاتكم"، وهنا "نغفر لكم خطاياكم"، هذا بالإضافة إلىٰ ذكر الواو في آية البقرة وحذفها من آية الأعراف، والدراسة ستجلي جمال الدلالة وسياقها في النصين بعد بيان موطن الشاهد "وسنزيد المحسنين" بالواو، أو "سنزيد المحسنين" من غير واو؛ لأن لهما علاقة بالسياق كله، وكذلك الآية التي أعقبت كلا من الآيتين السابقتين بينهما اختلاف أيضًا حيث قال عقب آية البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ وآية الأعراف قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ...﴾ فنص علىٰ (منهم).

أولًا: موطن شاهدنا الرئيس هنا هو قوله -تعالىٰ-: "وسنزيد المحسنين" في البقرة، و"سنزيد المحسنين" في الأعراف من غير واو.

هذا الختام لكل من السياقين دليل علىٰ تعلق أول كل آية بختامها وترابط الجميع بسياق السورة ومقصودها.

فلما كانت بداية آية البقرة "وإذ قلنا" بضمير العظمة الذي أسند الفعل فيه إلىٰ الذات المقدسة استدعىٰ ذلك عدة أمور:

أولها: ربط الدخول بالأكل ارتباط الجزء بالشرط، فرتب الأكل علىٰ الدخول، أي إذا دخلتم فكلوا، وتوسع فيه بما يدل علىٰ عظمته وكرمه وإنعامه، فزاد هنا في آية البقرة قوله (رغدا) أي أكلًا واسعًا هنيئًا مريئًا دون مشقة، ثم قدم الدخول علىٰ طلب المسألة بأن يحط عنهم خطاياهم؛ لأن الدخول سجدًا أولًا مما يتناسب مع ضمير

العظمة في "قلنا" فقول الحطة بعد دخول المتواضع لعظمة "قلنا" أدعىٰ للقبول وأرجىٰ له.

ثم جاء التعبير بـ"خطاياكم" بجمع الكثرة المناسب لهذه العظمة أيضًا في قوله -تعالىٰ- "قلنا" وجاءت الواو بعد كل ذلك داخلة علىٰ الزيادة "وسنزيد المحسنين" مما يؤكد أن عظمة الله بكرمه ومغفرته لن تنقطع، وأن أجر الكريم متصل؛ أي وفوق كل ما سبق سنزيد المحسنين إحسانًا يكون سببًا في مضاعفة الأجر، ومن ثم قال: "فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم" ولم يقل فبدل الذين ظلموا منهم، كما هو محدد في آية الأعراف، ولذلك يتجلىٰ أن إسناد الفعل إلىٰ ما لم يُسمّ فاعله في آية الأعراف "وإذ قيل" كان سببًا في عدم ربط الأكل بالسكنىٰ؛ لأنه قال هنا (اسكنوا) ولم يقل ادخلوا، كما في آية البقرة، والسكنىٰ هنا من اللبث؛ أي (المكث) ومن ثم لم يترتب عليه الأكل، فلم يعطفه بالفاء، بل جمعه مع السكنىٰ بالواو، والواو لا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا، ولم يذكر (رغدًا) الدال علىٰ التوسع، وذلك للفرق بين (قلنا) هناك و(قيل) هنا، وقدم قول الحطة علىٰ الدخول سجدًا؛ لأن قول الحطة هو هدفهم حين أسند القول لما لم يسم فاعله، وعطف الدخول بالواو حتىٰ لا يترتب أحدهما (القول والدخول) علىٰ الآخر، ومن ثم جمع (خطيئاتكم) علىٰ القلة، ليتناسب أيضًا مع (قليل) في أول الآية، ثم قطع القول (سنزيد) بحذف الواو، وجعله خبرًا مفردًا، فالواو هناك أعطت الزيادة معنىٰ التأكيد، وحذفها هنا جعلها مجرد قول يخلو من المبالغة الملحوظة من سياق المعنىٰ هناك، والألفاظ خدم للمعاني، ودليل عليها كما سبق واستدعىٰ ذلك تحديد الظالمين فقال (منهم) فقصرها عليهم، وسياق سورة الأعراف يقتضي هذه الزيادة (منهم)؛ لأن أول القصة في سورة الأعراف مبني علىٰ التخصيص والتمييز بدليل لفظه في الآية قبلها في قوله -تعالىٰ-: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ (١)

(١) أفدت في هذا البيان من العلامة: الخطيب الإسكافي أثر كتابه درة التنزيل وغرة التأويل، ص٨-١٢.

[الأعراف: ١٥٩] فذكر أن منهم من يفعل ذلك بعد أن عدد نعمه عليهم في قوله – تعالىٰ-: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[الأعراف: ١٦٠.[

فلما بدلوا نعم الله عليهم خصهم بهذا القول (منهم) وتركت في سورة البقرة علىٰ إطلاقها تناسبًا مع العظمة في لفظ "قلنا" فقط؛ لأن سياق سورة البقرة فيه أيضًا تعديد نعم الله عليهم، وبيان ظلمهم.

ومن ثم كانت بداية كل سياق حاكمة علىٰ سياق كل قول، وعلىٰ نهايته، ويتجلىٰ جمال الدلالة والسياق في إبراز كرم الله وسعة عفوه، وزيادة إحسانه بناء علىٰ ترابط عناصر النص بمقصود السورة الدال علىٰ الهداية في البقرة، كما يتجلىٰ جمال الدلالة والسياق بأن تكون الزيادة خبرًا مستأنفًا، والسياق يخلو من السعة والجود، وتقليل الخطايا التي تُغفر بناء علىٰ استهلال النص بلفظ (قيل) المبني لما لم يسم فاعله، ويأتي تحديد الظالمين (منهم) خصيصًا ليتواءم مع سياق النص كله، وترابطه مع المعاني المبثوثة في السورة المترابطة مع مقصدها الذي هو إنذار المعرضين –كما سبق– وهذا الإنذار يقتضي حذف الواو من (سنزيد المحسنين) أو يقتضي ذكر (منهم) كما تبين.

وكتاب الله مملوء بهذا النوع من البيان، وتختلف الدلالات من سياق لآخر، ولكن أكتفي بهذا؛ لكونه دليلا علىٰ مثيله.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الماتعة مع قدر يسير جدا كلام الحق سبحانه، خلصت هذه الدراسة الموجزة إلى نتائج منها:

١-أن الحرف لا يكون عمدة في بناء الكلام، ولكنه طرف في بناء المعنىٰ، ومن ثم سمىٰ حرفا؛ لكونه حدا للحرف، وللكلام، ولا تتجلىٰ قيمته إلا في السياق.

٢-أن حروف المعاني كثيرة، وليست مقيدة بالتسعة والعشرين حرفا التي يبنىٰ منها الكلام، وإن كانت من جنسها، فقد ذكر العلماء: أنها تربو علىٰ الثلاثة والسبعين، وذكر بعضهم نيفا وتسعين، وتنحصر في خمسة أقسام: أحادي، ويقع في أربعة عشر حرفا، يجمعها قولهم" بكشف سألتمونيها" وهي الباء والهمزة ... إلخ، وثنائي نحو: إذ، وأل، وأم، وعددها ثلاثة وثلاثون حرفا، وثلاثي، نحو: أجل، وإذن.. وتقع في ستة وثلاثون حرفا، ورباعي نحو: إذما، وألا، وأما، وجملته: تسعة عشر حرفا، وخماسي، وهو: ثلاثة أحرف، واحد متفق علي حرفيته، وهو: لكن، واثنان فيهما خلاف، وهما: أنتما، وأنتن،. فهذه خمسة وتسعون حرفا، وكل حرف منها يفيد معنىٰ، وقد يفيد أكثر من معنىٰ حسب سياقه.

٣-ويدخل فيها الحروف المقطعة التي وقعت استهلالا لبعض سور القرآن الكريم؛ لأنها تنطق بأسمائها، فيقال: ألف، لام، ميم، ولايقال "ألم" نحو قوله تعالىٰ" ألم نشرح لك صدرك" وللعلماء في معانيها أقوال-كما سبق- وتسميتها حروفا في الحديث الشريف" لا أقول ألم حرف، ولكن ألف حرف،

ولام حرف، وميم حرف" تسمية مجازية من باب إطلاق أحد المتلازمين علىٰ الآخر.

٤-ولوحظ من خلال دراسة بعض حروف المعاني: أن حرف النداء "يا" محذوف دائما مع كلمة" ربنا " للدلالة علىٰ أن الله قريب، ولم تذكر الياء إلا مع كلمة "رب" -دون إضافة- في موضعين اثنين في القرآن الكريم كله، هما: قوله تعالىٰ" وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا" وهو في مقام الاعتذار، وليس في مقام الدعاء، وقوله تعالىٰ" وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون" وليس دعاء أيضا، وإنما هو مقام التبرؤ.

٥-كما تبين من خلال هذه الدراسة: أن ذكر الواو له دلالة تدفع إلىٰ الاستقامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، وأن حذفها يدعو إلىٰ التحذير من العقوبة إن في الدنيا، وإن في الآخرة. وأن الحرف حين يذكر يؤدي معنىٰ تتجلىٰ به بلاغته، وحين يحذف يؤدي معنىٰ تتحقق به دلالته، فهو علىٰ أي حال، مذكورا، أو محذوفا متوافق مع السياق ومشارك في تمام المعنىٰ.

والله من وراء القصد

وهو نعم المولى ونعم النصير

أ.د: السيد محمد سلام

أستاذ البلاغة والنقد وعميد كلية اللغة العربية بالمنوفية

ثبت المصادر والمراجع

١. **أحكام القرآن**، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث، بيروت.

٢. **أدب الكاتب**. لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق، محمد محي الدين عبدالحميد، نشر مكتبة السعادة، مصر، الطبعة الرابعة، ١٩٦٣م.

٣. **أسباب النزول**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، تحقيق، د. السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، ط السابعة، ١٤١٩ هـ.

٤. **أسرار التكرار في القرآن** (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت ٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق، عبدالقادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

٥. **أصول السرخسي** لأبي بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق، أبي الوفاء الأفغاني، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٢هـ.

٦. **إعجاز القرآن**، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق، السيد أحمد صفر، ط ٥، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م.

٧. **بدائع الفوائد** لابن القيم (ت٧٥١هـ)، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وعادل عبدالحميد العدوي وأشرف أحمد، مكتبة نزار مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

٨. **البرهان في تناسب سور القرآن**، للإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، تحقيق الدكتور، سعيد جمعه الفلاح، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولىٰ ١٤٢٨هـ.

٩. **البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني**، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، ط دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولىٰ (١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م).

١٠. **البرهان في علوم القرآن** لبدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر، دار المعرفة – بيروت.

١١. **بصائر ذوي التمييز**، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف بمصر، الطبعة الثانية عام ١٤٠٦.

١٢. **التعريفات**، لعلي محمد بن علي الجرجاني، تحقيق، إبراهيم الأبياري (ت، ٨١٦هـ)، دار الكتاب العربي، ط٤، ١٤١٨هـ.

١٣. **تفسير البغوي**، معالم التنزيل، للإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق، محمد عبد الله النمر و عثمان جمعة و آخرون، ط٣، دار طيبة، الرياض، ١٤١٦هـ.

١٤. **تفسير الفخر الرازي** (التفسير الكبير) لمحمد بن عمر فخر الدين الرازي، المتوفىٰ سنة ٦٠٦هـ، طبع دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة.

١٥. **الجنى الداني في حروف المعاني** الحسن بن قاسم المرادي ت: فخر الدين قباوة. محمد نديم فاضل . دار الآفاق الجديدة بيروت

١٦. **حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي**، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِىٰ وكِفَايةُ الرَّاضِىٰ عَلَىٰ تفْسيرِ البَيضَاوي : شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفىٰ: ١٠٦٩هـ) دار النشر: دار صادر – بيروت

١٧. **حروف المعاني والصفات**، عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي النهاوندي الزجاجي، أبو القاسم (المتوفىٰ: ٣٣٧هـ) المحقق: علي توفيق الحمد الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٩٨٤م

١٨. **الخصائص**، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق، محمد علي النجار، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط الأولىٰ، ١٣٧٦ هـ.

١٩. **دلائل الإعجاز**، للإمام أبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، تحقيق، محمود محمد شاكر، مكتبة المعارف، ط٥، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

٢٠. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلامة أبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، البغدادي، (ت، ١١٢٧هـ)، دار الفكر، ١٤٠٨هـ.

٢١. **شروح التلخيص**، للتفتازاني، والمغربي، والسبكي، نشر أدب الحوزة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٢. **صحيح البخاري** للإمام البخاري، تحقيق، مصطفىٰ ديب البغا، دار ابن كثير واليمامة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.

٢٣. **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب**، لشرف الدين الطيبي، دراسة وتحقيق من بداية سورة الأنبياء إلىٰ نهاية سورة الشعراء، رسالة ماجستير، إعداد، عبد القدوس راجي موسىٰ،

٢٤. **الفروق اللغوية**، لأبي هلال الحسن بن عبدالله بن سهل العسكري (ت، ٤٠٠هـ)، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، ط١، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

٢٥. **في علوم القرآن**. لسليمان المعرفي، نشر مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، ٢٠٠٣م.

٢٦. **القاموس المحيط**، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٢٧. **قيمة الزمن عند العلماء**، تأليف/ عبد الفتاح أبو غدة، تحقيق/ الناشر/ مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة/ العاشرة

٢٨. **كتاب سيبويه**، لأبي بشر بن عثمان بن قنبر، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، ط٤، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٥هـ.

٢٩. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٧٤هـ ط، الأولىٰ.

٣٠. **مباحث في علوم القرآن**، د. مناع القطان، ط٢، ١٤١٧هـ نشر مكتبة المعارف، الرياض.

٣١. **متشابه القرآن**، لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي. أحد القراء السبعة. ت، ١٨٩ه، تحقيق، د. صبيح التميمي، كلية الدعوة الإسلامية ولجنة الحفاظ علىٰ التراث الإسلامي، طرابلس، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٩٤م.

٣٢. **معاني القرآن الكريم**، لأبي جعفر أحمد النحاس، تحقيق، محمد الصابوني، طبع جامعة أم القرىٰ، ط، ١، ١٤٠٩هـ.

٣٣. **معاني القرآن للفراء**، تحقيق أحمد نجاتي، ومحمد النجار، ط دار السرور.

٣٤. **معاني القرآن وإعرابه** للزجاج، أبي إسحاق إبراهيم السري، المُتوفَّىٰ سنة ٣١١هـ، شرح وتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي، طبع دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨هـ = ١٩٩٨م.

٣٥. **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، ١٣٨٩هـ، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

٣٦. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق، د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله و سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط الثانية.

٣٦- **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الأصفهاني، ضبطه وراجعه، محمد خليل عيتاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٤٢٠ هـ.

٣٧- **النبأ العظيم**، تأليف الدكتور/ محمد عبدالله دراز، اعتنىٰ به وخرج أحاديثه عبدالحميد الدخاخني، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.

٣٨- **النهاية في غريب الحديث والأثر**، لمجد الدين المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي دار الفكر، بيروت